سلسلة: الفتوحات الإلهية شرح الأسماء الحسنى للذات العلية

اللطيف والقدوس

سبحانه وتعالى

لفضيلة الشيخ:
محمـــد الدبيسي
حفظه الله تعالى وعفا عنه

الطبعة الثانية

الطبعة الثانية

المحتويات

تقديم الطبعة الثانية 7

أولًا: شرح اسم الله «اللطيف» ﷻ

مقدمة شرح اسم الله «اللطيف» ﷻ 11

الفصل الأول: معاني اسم الله تعالى «اللطيف» 13

المعنى اللغوي 14

معنى «اللطيف» في حق الله تعالى 15

– رأي الإمام الغزالي في معنى اسم الله تعالى «اللطيف» 18

الفصل الثاني: لُطف الله تعالى 21

الفصل الثالث: الآيات الواردة في معاني اسم الله تعالى «اللطيف» 29

أولًا: قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ 30

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ 35

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ 41

رابعًا: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ 43

خامسًا: قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ 44

سادسًا: قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ 46

سابعًا: قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ 47

حظ العبد من اسمه تعالى «اللطيف» 48

ثانيًا: شرح اسم الله «القدوس» ﷻ

مقدمة شرح اسم الله «القدوس» سبحانه وتعالى........ 53
الفصل الأول: معاني اسم الله تعالى «القدوس»........ 55
الدليل على اسم الله تعالى «القدوس»........ 56
لطيفة حول قلة ورود اسم الله تعالى «القدوس» في القرآن الكريم........ 56
سبب اقتران اسم الله «القدوس» مع اسمه «المَلِك» في القرآن الكريم........ 57
المعنى اللغوي........ 58
معنى «القدوس» في حق الله تعالى........ 59
- رأي الإمام الغزالي في اسم الله تعالى «القدوس»........ 63
الفصل الثاني: حظ العبد من اسم الله تعالى «القدوس»........ 67
الحظ الأول: تنزيه العبد لعلمه وإرادته........ 68
الحظ الثاني: تقديس العبد نفسَه ليكون أهلاً لمجاورة القدوس ﷻ في حظيرة قُدُسه سبحانه وتعالى........ 71
الحظ الثالث: الدعاء باسم الله تعالى «القدوس»........ 78
- أولاً: دعاء المسألة........ 78
- ثانيًا: دعاء الثناء والمدح........ 79
- ثالثًا: دعاء العبادة........ 80
- الدعاء بالوَصْف الذي تَضمنه الاسم........ 80
صدر من هذه السلسلة........ 83

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الثانية

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِل فلا هاديَ له. وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70، 71].

أَمَّا بَعْدُ..

فإِنَّ أَصْدَقَ الحديثِ كتابُ الله تَعالى، وخيرَ الهَدْي هديُ محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدَثة بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالة في النار.

اللهم صلِّ على محمدٍ النبي وأزواجِه أمهات المؤمنين وذريَّته وآلِ بيته كما صليتَ على آل إبراهيم إنكَ حميدٌ مجيدٌ.

***

مسجد الهدي المحمدي

الظاهر - القاهرة

29 من جمادى الآخرة 1430هـ

22 / 6 / 2009م

أولاً

شرح اسم الله «**اللطيف**»

سبحانه وتعالى

مقدمة

شرح اسم الله «اللطيف»

سبحانه وتعالى

الحمدُ لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعدُ..

فهذا تفريغٌ لدرس شرح اسم الله «اللطيف» ﷻ، الذي ألقاه فضيلة الشيخ محمد الدبيسي - حفظه الله تعالى وعفا الله عنه - منذ خمس سنوات تقريبًا من سلسلة «شرح الأسماء الحسنى»، التي ما يزال يُلقيها حتى الآن. وقد طُبع - بتوفيق الله تعالى - عدة دروس منها، ونرجو اللهَ تعالى أن يُتم طبع بقية الأسماء، حتى يستفيد إخوانُنا من المعاني العالية التي تحتويها تلك الدروس من معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، ويتخلَّقوا - بما يليق بالعبد - منها، وأن يجتهدوا بها في توحيد الله تعالى ودعائه ومحبته والتعلق به. فندعو الله جل وعلا أن يكون طبعُ شرح تلك الأسماء الحسنى عونًا على ذلك، وأن يُلهمنا العلمَ والعمل جميعًا؛ حملًا لمسئولية هذا الدين وبذلًا لشيء من حق الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين علينا.

وآخِرًا؛ فإن محاولة الإسراع بطبع هذه الرسائل قد يُوقِع في أخطاء غير مقصودة، نتمنى تلافيها بعد ذلك، مع قبول النصح تصحيحًا لخطأ أو إصلاحًا لخلل، مع طلب الدعاء من أخٍ صالح استفاد شيئًا من ذلك يعينه على أمر آخرته.

وهو جُهد البشر المُقل، فما كان من صواب فمِن الله، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، واللهُ ورسوله بريئان منه.

نبتهل إلى الله أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والناظر فيه، واللهُ من وراء القصد.

مسجد الهدي المحمدي

الظاهر – القاهرة

الفصل الأول

معاني اسم الله تعالى «اللطيف»

- المعنى اللغوي
- معنى «اللطيف» في حق الله تعالى
  - رأي الإمام الغزالي في معنى اسم الله تعالى «اللطيف»

هذا الاسم المشرَّف «اللطيف» من الأسماء التي وردت في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 19]، وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103].

وهذا الاسم سنذكر معانيَه وما يتعلق به من حق الله تعالى الذي يجب أن نُعَظِّمه ونوحِّده به ﷻ. ثم بعد ذلك يَعْلَم المرءُ حظَّه منه ويدعو اللهَ تعالى به. ثم نشير إلى معاني بعض الآيات الواردة فيه كما هو منهجنا في شرح أسماء الله الحسنى.

المعنى اللُّغوي[1]

مادة [اللام والطاء والفاء] تدل على معنيين رئيسيَّيْن:

الأول: مِن «لَطُفَ، يَلْطُف، لُطْفًا، ولَطافةً» أي: صَغُر ودقَّ، فهو «لَطِيفٌ» أي: دقيق الحجم، يعني: دَقَّ وصار لطيفًا في حجمه أو في جِرمه.

والثاني: «لَطَفَ – به وله –، يَلْطُف، لُطْفًا» أي: رَفَق به. نقول: «فلانٌ لَطَفَ بفلان» يعني: رفق به. ومنه قولهم: «لاطَفْتُ العَلِيلَ، أُلَاطِفُه، مُلاطَفةً» يعني: رَفَقْتُ به[2].

* و«**اللُّطْفُ**» يَقْصِد به أهلُ اللغة: خَفاء المَسْلَك ودِقَّة المَذْهب. يقال: «فلانٌ لطيفٌ» يعني: أنه يَتوصَّل لغرضه بالخِفَّة ويَسلُك إليه الطريقَ المَسْتور الذي لا يَتميَّزه الناسُ كثيرًا.

* وقد يُعَبَّر بـ«**اللَّطائف**» عمَّا لا تُدْركه الحاسَّة.

---

(1) انظر – بتصرف كثير: «مقاييس اللغة»، و«لسان العرب»، و«القاموس المحيط»، و«تاج العروس»، مادة: [**ل ط ف**]. و«الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للإمام القرطبي ؒ، [ج1/ ص230، 231].

(2) الحاصل إذن أن هناك فرقًا بين «لَطُفَ» بضم الطاء و«لَطَفَ» بفتحها؛ «لَطُفَ» بمعنى: دَقَّ، من الدِّقة التي هي صِغَرُ الحجم، أو الشفافية بحيث يكون دقيقًا لا يُتَوصل إليه. و«لَطَفَ» بمعنى: أَحْسَنَ إليه ورَفَق به. والاثنانِ المضارعُ منهما: «يَلْطُف»، كما أن «لَطُفَ» – بالضم – مصدره: «لُطْفًا، ولَطافةً»، أما «لَطَفَ» – بالفتح – فمصدره: «لُطْفًا» فقط.

* و«**اللُّطْف**»(1) في وَصْف الله تعالى يفيد أنه: المحسِن إلى عباده في خَفاء وسِتر من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم أسبابَ معيشتهم من حيث لا يحتسبون.

* وقد يكون «**اللُّطْف**» بمعنى: البِرّ. يقول: «أَلْطَفَه» بمعنى: أَتْحَفَهُ، و«أَلْطَفَهُ بكذا» يعني: بَرَّه بكذا، أعطاه..

* و«**اللَّطَف**» - بفتح اللام والطاء: الهدِية. نقول: «جاءتنا من فلان لَطَفَةٌ» يعني: جاءتنا من فلان هدية.

وكل هذه المعاني لا بد أن تَعلم أن الله تعالى مُتَّصِفٌ بها كما سترى، وهي: اللُّطفُ، والبِرُّ، ووصولُ الهدايا، ووصولُ الإحسان، والرِّفقُ إلى العباد في سِتر أو من حيث لا يحتسبون أو يعلمون... كلُّ ذلك اللهُ ﷻ مُتَّصِفٌ به، بل هو من أعظم أوصافه ﷻ، كما تدل الآيات الواردة في معاني اسم الله تعالى المشرف «اللطيف».

معنى «اللطيف» في حق الله تعالى

«لَطَفَ اللهُ بالعبد لُطفًا» يعني: رفق به، «وأَلْطَفَهُ» يعني: بَرَّه. وكذلك «لَطَفَ به لُطْفًا» يعني: وَفَّقَه وعَصَمه.

فيكون اللُّطف من الله تعالى هو: «التوفيق، والعصمة، وإيصال الخير». فيُوصِّل إليهم ﷻ إحسانَه وبِرَّه وألطافَه من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون، كما ذكرت الآيات:

- قال تعالى: ﴿**وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق: 3].

(1) على المعنى الثاني من المعاني التي ذكرناها، وهو من «لَطَفَ به - بالفتح - لُطْفًا» يعني: أَحْسَنَ إليه ورَفَق به.

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح: 6]، حيث ترى العُسْرَ فإذا باليُسْرِ مُتوطِّنٌ به داخلٌ فيه.

- وقوله أيضًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف: 110].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ يعني: من إيمان قومهم، ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي: قومُهم، ﴿أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ يعني: ظنوا أن الرسل قد كُذبوا، وأنه لن يأتيَهم عذابٌ ولا شيء.. حيث كان الرسلُ يُحَذِّرونهم ويُنْذِرونهم عذابَ الله تعالى، وتأخَّر عنهم عذابُ الله تعالى، ولكن بعد ذلك: ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

وهذا الاسم - «اللطيف» ﷻ - يدل صريحًا على مَن له لُطْفٌ، ويتضمن حينئذٍ جميعَ الصفات: كـ«العليم، والقدير، والسميع، والبصير...» وغير ذلك؛ لأنه لـمَّا لَطَفَ ﷻ بعبده أَوْصَل له فضلَه في سِترٍ وخَفاء، فإنه حينئذٍ يكون عليًما بما يُوَصِّل إليه من بِرٍّ، وعليًما بمَنْ يُوَصِّل إليه هذا البِرَّ، وكذلك قديرًا ﷻ في توصيل ذلك من حيث لا يحتسِب العبد، ولما كان كذلك فإنه سميعٌ بصيرٌ ﷻ.

و«اللطيف» أيضًا هو الذي يتناول الأمورَ برفقٍ ويَقْدِر على إنشائها وإتمامها برفق وحُسْنِ تناوُلٍ(1).

---

(1) وإلى بعض هذه المعاني السابقة أشار العلامة ابن منظور ﷺ في «لسان العرب»، فقال: «اللطيفُ صفةٌ من أسماء الله تعالى واسمٌ من أسمائه. وفي التنزيل: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 19]، وفيه: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103]. ومعناه - والله أعلم: الرفيق بعباده»؛ فهذا هو المعنى الأول. «قال أبو عمرو» وهو المعروف بغلام ثَعْلب: «اللطيفُ الذي يُوَصِّل إليك أَرَبَكَ في رِفقٍ» وهذا هو المعنى الثاني، والأَرَبُ: هو مَطْلبُ الإنسان؛ يعني: اللطيف هو الذي يُوصِّل إليك مقصودَك أو طَلَبَك أو ما تبتغي في رِفقٍ. والمعنى الثالث: أنَّ «اللُّطْف من الله تعالى التوفيقُ والعِصْمة» اهـ- بتصرف يسير -، مادة: [ل ط ف]. وقد جعلنا كلام العلامة ابن منظور ﷺ بين تنصيص هكذا «...».

و«اللطيف» كذلك هو العالِمِ بدقائق الأشياء وغوامضها. فاللهُ ﷻ أحقُّ بهذه الأوصاف كلها، فهو الذي انفرد بالإحاطة وتربية الجميع، وهو العالمُ بخَفِيِّ مصالحهم وتَدْرِيجِ أحوالهم وتنزيلِ كلِّ دقيقٍ منها ابتداءً وجزاءً على موافقة حُكْمه، فيكون «اللطيف» على هذا المعنى الأخير اسمًا ذاتيًّا للرب تعالى.

و«اللطيف» إنِ اعتُبِرت وصفًا جاريًا على «لَطُفَ» - بضم الطاء - فهي: صفةٌ مشبّهة، تدل على صفةٍ من صفات ذات الله تعالى، وهي صفةٌ تنزيه تعالى عن إحاطة العقول بماهيته أو إحاطة الحواسِّ بذاته وصفاته.

***

فعَلِمنا إذًا عن الله تعالى من اسمه «اللطيف» هذه المعاني: الرفق، والبر، وإيصال الإحسان، والتوفيق والعصمة، والإحاطة والعلم بدقائق الأمور وغوامضها، وحُسْن تناوُلِ الأمور والقدرة على إنشائها وإتمامها. وكذلك عَلِمنا تَضَمُّنَه جميعَ الصفات: كـ«العليم، والقدير، والسميع، والبصير...». فكلُّ ذلك إنما هو لله تعالى[1].

ونحن في حاجة وضرورة مُلِحَّة في الظاهر والباطن لمثل هذه المعاني والعطايا من الله تعالى، وقد فتح المولى لنا بابَها، وما علينا إلا أن نَدْعُوَ اللهَ بها، ونُوحِّده بها؛ لِنُحَصِّل هذا الفتح العظيم الذي يُحِبُّ اللهُ جل وعلا لعبادِه.

---

(1) وهذه المعاني ينبغي أن تحفظها لِتَعلم اتِّصافَ ربك ﷻ بذلك الاسم المشرف، وحتى تَعْلم شيئًا من عظمته؛ ليكون - أي هذا الاسم المشرف «اللطيف» - طريقًا لك إلى معرفة الرب جل وعلا وتوحيده.

رأي الإمام الغزالي في معنى اسم الله تعالى «اللطيف»

وقبل أن نخوض في شرح الآيات، نذكر رأيَ الإمام الغزالي رحمه الله؛ لأنه أقربُ في توضيح هذه المعاني السابقة، وإنْ كان اسمُ الله تعالى «اللطيف» اسمًا عظيمًا لا يستطيع المرءُ أن يُحيط به، ولكنْ سنذكره لِيعلم المرءُ كيف أنه لا يحيط الناسُ بشيء من هذا الاسم المشرف[1].

يقول الإمام رحمه الله: «إنما يَسْتَحِقُّ هذا الاسمَ مَن يعلم دقائقَ المصالح وغوامِضَها، وما دَقَّ منها وما لَطُفَ، ثم يَسْلُكُ في إيصالها إلى المُستحِقِّ سبيلَ الرِّفق دون العُنْف».

يعني: هو الذي يعلم مصالِحَكَ كلها من أولها إلى آخرها، وليست مصالحَكَ أنتَ فقط، ولكن مصالحَ الدنيا والآخرة والجن والإنس، والطير والحيوان والجماد والنبات، ومصالحَ كل خَلْقه، ويعرف الدقائقَ والغوامضَ والظاهرَ والباطنَ.. كلُّ ذلك يعلمه سبحانه وتعالى، ثم يسلك سبيلَ الرفق - في إيصال هذه المصالح إلى مُستحقِّها - دون العُنْف. وانظر إلى بقية خَلْق الله سبحانه وتعالى دون الإنس ترى صِدْقَ ذلك.

فإذا اجتمع الرفقُ في الفِعْل واجتمع معه اللطفُ في العلم، تَمَّ معنى اللطف. ولا يُتَصَوَّر كمالُ ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالى، فلا يُتَصَوَّر أن يعلم أحدٌ هذه الأمورَ وفوائدَها وأن يُوصلها إلى مُستحقِّها في رِفْقٍ.. إلا الله جلَّ وعلا.

أما إحاطتُه سبحانه وتعالى بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك: لا يمكن لأحدٍ أن يُفَصِّل إحاطةَ الله تعالى بالدقائق والخفايا! أنتَ مثلًا أيها المسكين.. انْظُر إلى دقائق نفسك

(1) انظر - بتصرف: «المَقْصِد الأَسْنى شرح أسماء الله الحسنى»، للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله، شرح اسمه تعالى «اللطيف» سبحانه وتعالى، [ص70-72]، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية. وقد جعلنا أيضًا كلام الإمام رحمه الله بين تنصيص هكذا «...».

وخفاياك، تَعْلَمْ أنك لا تَعْلَمُ من نفسك شيئًا، يعني: لا تعرف أجهزتَك.. ولا ظاهرَك.. ولا باطنَك.. وما يَحْدُث لك.. وفيك، ولا إنْ حَدَث لك شيءٌ ماذا تفعل.. إنْ حدث لك شيءٌ سارعتَ إلى الطبيب أو إلى غيره تَسْتعين به، والطبيبُ إنْ حَدَث له شيءٌ سارَع إلى طبيبٍ آخر مثله... وهكذا. فلا يستطيع أحدٌ أن يحيط بشيء من هذه الدقائق والغوامض من تلك المصالح التي أصلح اللهُ تبارك وتعالى بها خلقَه على اختلاف أجناسهم: الإنسان والحيوان والنبات، وكل ذلك.

لذلك فالخَفِيُّ مكشوفٌ في علمه ﷻ كالجَلِيِّ، ولا فَرْق! فعند الله تبارك وتعالى ليس هناك خَفِيٌّ ولا جَلِيٌّ، بل كلُّه واحدٌ عنده ﷻ، واللهُ تبارك وتعالى مُطَّلِعٌ عليه، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؛ وهذا هو المعنى الأول الذي أشار إليه.

وأما الثاني: فهي رِفْقُه ﷻ في الأفعال التي فعلها في الدنيا وصوَّرها، وصوَّر الإنسانَ والحيوان والنبات، وخَلَقَ له رزقَه، وخَلَقَ له ما يُعينه، وترتيبَ ذلك، ونَفَسَه، وصدرَه، وقلبَه، وبطنَه، وكلَّ ذلك مما يتعلق بالإنسان وغيره في الدنيا والآخرة، وفي الظاهر والباطن، وفي السماء والأرض، وفي البحار..

فرِفْقُه في الأفعال ولُطْفه فيها لا يدخل أيضًا تحت الحَصْر؛ إذ لا يعرف اللطفَ في الفعل إلا مَنْ عرف تفاصيل أفعاله ﷻ، فمَن غَيْرُه الذي يعرف هذه التفاصيل؟! وإنْ عرف المرءُ شيئًا عن نفسه اليومَ فما الذي يعرفه عن بقية الكون؟! وإنْ عرف اليوم فماذا كان يعرف أمس وقبل سنين؟!..

فلا يعرف اللطفَ في الفعل إلا مَن عرف تفاصيلَ أفعاله، وعرف دقائقَ الرفق فيها، وبِقَدْرِ اتِّساع المعرفة فيها تَتَّسِع المعرفةُ بمعنى اسم «اللطيف» ﷻ. يعني: بقَدْر ما تتسع

معارِفُك في معرفة الرب ﷻ وتفاصيل رفقه في الأفعال التي خَلَقها ودبَّرها وأنشأها... إلخ، بِقَدْرِ ذلك تتسع معرفَتُك بهذا الاسم المشرف «اللطيف».

والمعنى: أنَّ المرءَ في نهاية العجز، واللهُ تعالى في نهاية اللطف، ولطفُه به هو الذي جعله على هذا الحال الحسن، فليس لك إلا أن تدعوه ﷻ قائلًا: «يا لَطِيف.. الْطُفْ بِنا».

وأنْ نشرح بعضَ رفقِه في الأفعال ولُطْفِه فيها يستدعي تطويلًا، فلو فَصَّلنا شيئًا من ذلك فإنه لا تستطيع مجلداتٌ كثيرة أن تَفِيَ بعُشْر مِعْشارِ تفاصيل رِفْقه ﷻ في أفعاله! وإنما يمكن التنبيهُ على بعض جُمَلِه التي تتعلق بلطفه ﷻ[1] كما سيأتي في الفصل الثاني.

❁ ❁ ❁

(1) انظر- بتصرف: المصدر السابق، [ص70-72].

الفصل الثاني

لُطْف الله تعالى

نذكر في هذا الفصل بعض الأمثلة من لُطف الله تعالى، وكما ذكرنا: بقدر اتساع المعرفة بلطف الله تعالى تتسع المعرفة بمعنى اسمه اللطيف ﷻ.

* فمِنْ لُطْفه ﷻ - وهذه صورة قريبة ترى فيها لطفَ الله تعالى - خَلْقُه الجَنِين في بَطْن الأمِّ في ظلماتٍ ثلاث، وحِفْظُه فيها، وتَغْذِيتُه بواسطة السُّرَّة إلى أن يَنْفصِل فيَسْتَقِلَّ بالتناول بالفَمِ، ثم إلهامُه إياه عند الانفصال الْتِقَامَ الثدي وامتصاصَه ولو في ظلام الليل من غير تعليمٍ ومشاهدة.

* بل فَلَقَ[1] البيضةَ عن الفَرْخِ وقد أَلْهَمه التقاطَ الحَبِّ في الحال، فيخرج هذا الكائن الصغير منها وقد فَتَح فاه لِيلتقط الحبَّ؛ فهذا لُطْفه ﷻ.

* ثم تأخِيرُ خَلْقِ السِّنِّ - للطفل حديث الولادة - عن أول الخِلْقة إلى وقت الحاجة للاستغناء في الاغْتِذَاءِ باللَّبَن عن السِّنِّ. فأَخَّرَ السِّنَّ لأنه مُسْتَغْنٍ عنه في ذلك الوقت، فمِن لُطْفه به ألا يخلق له السِّنَّ في أول نزوله من بطن أمه، حيث لا يستطيع حينئذٍ أن يرضع منها ولا أن يَلْتَقِم ثديها، ولا تستطيع هي أن تُرضعه. ثم إنباتُ السِّنَّ له بعد ذلك عند الحاجة إلى طَحْن الطعام، ثم تقسيم الأسنان إلى عَرِيضةٍ للطَّحْنِ وإلى أنيابٍ للكَسْر وإلى ثنايا حادة الأطراف للقَطْع... إلى غير ذلك.

* بل لو تَذْكُر لطفَه ﷻ في تيسير لُقْمةٍ يتناولها العبدُ من غير كَلَفةٍ يَتَجَشَّمُها[2] ما استطعتَ. انظر إلى لقمةٍ واحدة، كيف لَطَفَ فيها ﷻ بك: في لقمة واحدة يتناولها العبدُ من غير كلفة يتجشمها، قد تعاوَن على إصلاحها خَلْقٌ لا يُحْصَوْنَ: مِن مُصْلِحٍ للأرض،

---

(1) أي: شَقَّ. انظر: «لسان العرب»، مادة: [ف ل ق].

(2) «تجشَّم» الأمرَ: تَكَلَّفه على مَشَقَّة. انظر: «المعجم الوجيز»، مادة: [ج ش م].

وزَارِعها، وساقيها، وحاصِدها، ومُنَقِّيها، وطاحنها، وعاجِنها، وخابِزها... إلى غير ذلك، حتى تصل إليك. فهذه اللقمةُ التي تأكلها لو تفكَّرتَ فيها لعَلِمتَ لُطفًا عظيمًا. لذلك لما قال المولى ﷻ: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: 24]، قال بعض العلماء بوجوب ذلك! لنرى كيف نحن غافلون عن الامتثال لهذه الأوامر الشرعية. كثيرٌ من المفسرين قال: واجبٌ على المرء أن ينظر إلى طعامه ليرى فيه قدرةَ الله تعالى، ولُطفَ الله تعالى، وعِلْمَ الله تعالى، وحكمةَ الله تعالى، وقوةَ الله تعالى، وتيسيرَ الله تعالى.. ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا﴾ [عبس: 24-28].

وكلُّ ذلك على المعنى الظاهر لك فقط، أما بقية الأمور التي لا تَفْطِن إليها: مثل أن سخَّر لك الذي بَذَرها، والذي أَصْلَحَها، والذي نَقَّاها، والذي رَوَاها، والذي حَصَدها، والذي طَحَنها، والذي خَبَزها، والذي حملها إليك... كلُّ ذلك ما كان لِيَتَيسَّر إلا أن يُيَسِّره اللطيفُ الخبيرُ ﷻ: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا...﴾ إلى آخر الآيات.

ولو أردنا شرح ذلك فقط لما استطعنا أن نستوفي هذه الأشياء في شرحها. انظر منذ خَلَقَ اللهُ تعالى هؤلاء الذين يشرحون هذه الأمور لم يَسْتَوْفُوا منها شيئًا، وكلَّ يومٍ يتطلعون إلى جديد ويخترعون جديدًا لم يكونوا يعرفونه من قبل، وكلُّ ذلك لطفُه ﷻ الذي استقام به حالُ المرء.

ولو نَظَرَ المرءُ في نفسه لعَلِمَ كيف استقام حاله: النَّظَر، والسمع، والكلام، والشم، والمشي، والذوق، والتفكير، والتخزين في العقل، والغضب والرضا، والمحبة والكراهية، والحقد وعدمه، والأمانة والصدق والإخلاص... يا إلهي!! ينظر المرءُ إلى هذه المعاني كيف لُطْف الله تبارك وتعالى به فيها. ولو عكسها فانظر إلى حاله ساعتها! يعني: لو لم يكن

لك هذا الطعامُ حتى تقوم أنت به مِن أَوَّلِه، هل كنتَ ستستطيع أن تأكل؟ الجواب: لا بالطبع، فلو تُرِكْتَ أنتَ ونفسُك لتُهَيِّئ هذه اللقمة التي يقوم بها صُلْبُك ما كنتَ مُحَصِّلَها حتى تموت قبلها! من أين تُحصِّلها؟! هل ستقوم وتزرع وتَبْذُر وتحصُد وتعجِن وتخبز.. وكذا وكذا شهورًا طويلة؟ تكون قَدْ مِتَّ من الجوع قبل أن تصل إليك هذه اللقمةُ، فانظر إلى الترتيب السابق لله ﷻ!

يقول الإمام الغزالي رحمه الله مرةً أخرى: «وعلى الجملة فهو من حيث دَبَّر الأمورَ» هذا التدبير المُحْكَم «حَكَمٌ»[1] جل وعلا. «ومن حيث أَوْجَدَها» أي هذه الأمور التي بها تستقيم حياتُك وعقلك وعلمك وذِهنك، وتسير بها حياتُك في جميع نواحيها، فهو من حيث أوجدها كذلك «جَوَادٌ» ﷻ. «ومن حيث رَتَّبَها: مُصَوِّرٌ» فهو «المصوِّر» جل وعلا. «ومن حيث وَضَع كلَّ شيء في موضعه: عَدْلٌ» جل وعلا. «ومن حيث لم يترك فيها دقائقَ وجوهِ الرفق: لطيفٌ».

وهذه معانٍ عاليةٌ، ولكن نُشير إليها ليعرف المرءُ شيئًا عن ربه جل وعلا الذي يعبده؛ حتى يكون ذلك مَدْعاةً إلى توحيده وإفراده بالعبادة والإقبال عليه ودعائه ﷻ، حتى لا تحتاجَ إلى غيره ولا تدعوَ غيره ولا تخاف من غيره ولا ترجو سواه ﷻ، كما هي معاني التوحيد التي أتى بها النبيُّ ﷺ.

ولن يَعْرفَ حقيقةَ هذه الأسامي مَن لم يعرف حقيقةَ هذه الأفعال؛ فلن يعرف حقيقة «الجَوَاد» مَن لم يعرف معنى الجُود وفِعْلَ الجود في أفعال الرب جل وعلا. ولن يعرف

(1) وقد شُرح هذا الاسم المشرف «الحَكَم» في عدة دروس متوفرة في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيرها من مواقع الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت).

حقيقة «المصوِّر» حتى يعرف فِعْلَه وتصويرَه في خلقه؛ في الإنسِ والجن والنبات والحيوان، وهذه الصُّورِ التي تعالى مُصَوِّرها ﷻ. وكذلك لن يعرف حقيقة «العدل» حتى يعرف كيف وَضَعَ كلَّ شيء في مَنْصِبه وفي مكانه على هذا المعنى من العدل والاستقامة... إلى آخر هذه الأسامي والصفات التي أشرنا إليها.

وكذلك..

* مِن عظيم لُطْفِه ﷻ بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكَلَّفهم دون الطاقة. فإذا نظرتَ إلى ما أعطاكَ وإلى ما كلَّفك، فإنَّ ما كَلَّفَك به أقلُّ مما أعطاك: كَلَّفَك صلواتٍ خمسًا مُنَجَّمةً - يعني مُقَسَّطة - على اليوم، لم يطلبها منك مرةً واحدةً.. في استطاعتك الإتيانُ بها. كلَّفك من مالِكَ أن تأتي رُبْعَ العُشْرِ منه، فأعطاك فوق الكفاية وكلفك دون الطاقة. وأعطاك جُهدًا وصحةً وبَصرًا وسمعًا ولم يطلب منك إلا أقلَّ القليل شكرًا له وتعبُّدًا له وإقبالًا عليه. ومع ذلك فالذي رَتَّبَ لك ذلك وأمرَك به وأعانك عليه أثابكَ على تنفيذ أمرِه - إنْ نَفَذَّتَ هذه الأوامر.

فمنه ﷻ الكفايةُ، ومنه العطاءُ، ومنه بعد ذلك القَبول والجزاء. فله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ، وما بكم من نعمة فمن الله ﷻ. ورَتَّب ﷻ كلَّ ذلك على اللطف، فلَطف بعباده أنْ أعطاهم فوق الكفاية وكلَّفهم دون الطاقة.

* **وكذلك مِن لُطْفه**: أنه يَسَّر لهم الوصولَ إلى سعادة الأبد بِسَعْيٍ خفيفٍ في مدةٍ قصيرة، وهي العُمر، فإنه لا نِسبةَ لها بالإضافة إلى الأبد. فهو ﷻ قد يَسَّر لك سعادة الأبد بعمل سِتين أو سبعين سنة مثلًا، أعطاك على هذه المدة القصيرة وهذا السعي الخفيف

الذي تسعاه في حياتك، أعطاك به سعادةَ الأبد، والتي لا نسبة لهذه المدة القصيرة إلى سعادة الأبد عليها؛ وذلك من لطفه بك ﷻ.

وهذه المعاني نحن نشير إليها مع أنها معلومة أمام المرء.. ولكنْ مَن الذي يتذَكَّر وينظر ويَعْتبر؟! مع أن الله تعالى أمرَ عبادَه أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وأن يَتبصَّروا وأن يسيروا في الأرض ليعرفوا عن الله تبارك وتعالى، وأَمَرَهم أن ينظروا إلى طعامهم وأن ينظروا في الآفاق وفي أنفسهم؛ ليتبين لهم قُوَّتُه وقدرته.. ليتبين لهم الحقُّ كما ذَكر المولى ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53، 54]. ومع ذلك فمن الذي يَنظر؟! والآياتُ التي دلت على الوحدانية ودلت على اللطف والعلم والقدرة والإرادة والعظمة والعُلُوِّ والوُسْع والحكمة والعدل والإيجاد والخَلْق والتَّصْوير، ودلت على كل هذه المعاني، هي أكثر الآيات في القرآن الكريم. اتْلُ مثلًا قولَه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [ق: 7]، لا تكاد تخلو آية من هذه المعاني.

وعليه؛ فإن المرء المؤمن مطالَبٌ بأن ينظر في هذه الآيات - وهو يقرأها - وعلى أقل تقدير أنْ يعرف أنها آيات توحيد الرب ﷻ وإظهار القدرة وتَبْيِين العظمة... إلى آخر ما ذكرنا. انظر في أيةِ آيةٍ في أيةِ سورةٍ من سُور القرآن الكريم تجد هذه المعاني. غالبُ السور في القرآن الكريم تُبين مطالَعةَ الكون والنظرَ فيه، وأن ينظر المرءُ فيما كان ويكون، وفيما حوله، وفيما فوقه وتحته، وأن يرمي ببصره إلى معرفة خَلْق الله تعالى. والمرءُ لم يفكر يومًا أن

يكـون ذلـك سـبيلَه إلى معرفـة الله تعـالى وتوحيـده والإقبـال عليـه؛ مِـن النظـر في السـماء والأرض والنَّفْس والكون والزرع والمطر والبحار.. فكلُّ ذلك ذَكَره الله تعالى[1].

ونكمل شيئًا من مظاهر اللُّطف:

* فمِنْ لُطْفه ﷻ إخراجُ اللَّبَن الصافي من بين الفَرْث والدَّمِ، وإخراجُ الجـواهر النَّفِيسـة من الأحجار الصُّلبة، وإخراجُ العَسَل من النحل، والإِبْرِيسَم - أي الحرير - مـن الـدُّود، وإخراجُ الدُّرِّ من الصَّدَف.

* وأعجبُ من ذلك كلِّه: خَلْقُه الإنسانَ مـن النُّطْفـة القَـذِرة وجَعْلُـه مُسـتودَعًا لمعرفتـه وحامِلًا لأمانته ومشاهِدًا لملكوت سماواته ﷻ؛ وهذا أيضًا رِفْقٌ لا يمكن إحصاؤُه[2].

۞ ۞ ۞

(1) قـال تعـالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164]. والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

(2) إلى هنا انتهى كلام الإمام الغزالي رحمه الله والتعليق عليه.

الفصل الثالث

الآيات الواردة في معاني اسم الله تعالى «اللَّطِيف»

- أولاً: قولـه تعـالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾
- ثانيًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾
- ثالثًا: قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾
- رابعًا: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾
- خامسًا: قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾
- سادسًا: قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾
- سابعًا: قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾

ونشير كما هي عادتنا في شرح الأسماء الحسنى إلى بعض الآيات التي ذكرت اسمَ الله تعالى «اللطيف» في القرآن الكريم، لنَتَمَيَّز منها ما ذكره اللهُ ﷻ عن نفسه.

أولاً: قوله تعالى:

﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16].

وقد بدأنا بهذه الآية الكريمة دون غيرها لأنها - في غالب الظن - من أوضح الآيات التي تشير إلى لطف الله تعالى. وإليك تفسير هذه الآية الكريمة:

قوله تعالى: **﴿يَـٰبُنَىَّ﴾** نِداء. ونلاحظ أن في بعض آيات سورة لقمان تكرير للنداء، حيث قال: **﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾** [لقمان: 13]، **﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾** [لقمان: 17]، **﴿يَـٰبُنَىَّ...﴾** إلى آخر الآيات. وتكريرُ النداء هنا لِتَجْدِيد نشاط السامع كي يَعِيَ الكلام، مع الحرص على تعليمه وإظهار الشفقة به بالبُنُوَّة.

و«**المِثْقال**»: ما يُقَدَّر به الثِّقَل، يعني: ما يُوزَن به الشيءُ. و«**الحبَّة**»: واحدةُ الحَبِّ، كبِذْر النبات، أو سُنبلة القمح، أو بذرة القطن أو غيره. و«**الخَرْدَل**» كما هو معلوم: نباتٌ له ساق وله أوراق، والأوراق هذه لها أزهار، والأزهار فيها حبوب صغيرة جدًّا، الزهرة الواحدة تسمى «خَردلة» عند علماء النبات، ولها طعمٌ حِرِّيف كان يُستخدم في بعض الأدوية في الزمان الماضي.

يقول المولى ﷻ في هذه الحَبَّة من الخردلة التي في نهاية الدِّقة: لو كانت في السماوات أو في الأرض أو في صخرةٍ؛ يأتِ بها الله، وهذا المعنى المتبادَر. ولكنِ انظر في الآيات لِتَعْرِف

لطفَ الله تعالى وعظمته، يقول: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾[1]، ثم عَطَف ﷻ على الجملة السابقة قولَه: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فعَطف السماوات على الصخرة؛ لأن الصخرة من أجزاء الأرض. ولو قلت: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ..﴾ لا يستقيم الأسلوب، وإنما كان الأسلوب الكريم على الاستقامة وعلى البلاغة العالية: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ثم عاد إلى الأرض: ﴿أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾، يعني: في هذه القطعة من الأرض الصُّلبة الصَّمَّاء الشديدةِ الصلابة تكون هذه الخردلة في داخلها. ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أو تكون هذه الخردلة الصغيرة في أي مكان في السماوات. ﴿أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أو تكون في أي مكان في الأرض... ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾.

وكأنَّ معنى الكلام: أنه لو كانت هذه الحبة في مكان عزيزٍ صُلْبٍ كالصخرة مثلًا، أو كانت في مكان أعزَّ مَنالًا فَسِيحًا لا يُدْرَى بها فيه كالسماوات، أو كانت في الأرض في أي مكان.. يأتِ بها اللهُ، في الوقت الذي لا يستطيع العالَـمُ كلُّه أن يأتي بها بدون مفسدة.

فكلُّ ذلك في جَنْب علم الله تعالى سواءٌ؛ سواء أكانت في أي مكان من العالم العلوي أم السفلي، كما قال ﷻ عن نفسه: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: 3].

وكونُه ﷻ يأتي بها فذلك دليلُ التَّمَكُّن، ودليل العلم التام؛ لأن الإتيان بأدق الأجسام من أقصى الأمكنة وأعمقها وأصلبها لا يكون إلا عن عِلمٍ بكونها في ذلك المكان، وعن

(1) و«مثقالَ» أو «مثقالُ» قُرِأَ بهما في القراءات المتواترة، والأولى قراءة حفص عن عاصم الشائعة في مصر وغيرها من البلاد.

عِلم بأسلوب استخراجها سليمةً من ذلك المكان. **فالمعنى الأول**: أنه لا يأتي بها إلا وهو عالِمٌ بمكانها، أليس كذلك؟ **والمعنى الثاني**: أنه لا يأتي بها إلا وهو قادِرٌ على الإتيان بها.

ودليلُ العلم والقدرة التامة: أن يَسْتخرجها - هذه الحبة من الخردلة - من الصخرة، بحيث لا يقع في مُلكه ﷻ أيُّ فساد. فلو حاولتِ الدنيا كلُّها أن تأتي بهذه الحبة أو هذه الذَّرة التي في صخرة أو السماوات أو الأرض، فهل تستطيع أن تأتي بها فضلًا عن أن تأتي بها بغير فسادٍ يمكن أن يقع في محاولة استخراجها؟! وبغير علمٍ وقدرةٍ تامَّتَيْنِ على ذلك؟! وتَأمَّلْ تَكْلِفةَ ذلك لو حاولوا أن يأتوا بها من السماء، أو تكلفَته لو حاولوا الإتيانَ بها من الأرض؛ تُراهم كم يَبْذُلون لِيُحَصِّلوا هذه الخردلة؟!..

فـ«اللطيفُ» - كما ذكرنا - مَنْ يعرف دقائقَ الأشياء، ويَسْلُك في إيصالها - إلى مَنْ تَصْلُح له - مَسْلَكَ الرِّفقِ.

ووَصْفُ اللُّطفِ هذا وصفٌ مُؤْذِنٌ بالعلم والقدرة الكامِلَيْنِ، أي: يَعْلَم ويَقْدِر وتَنْفُذُ قدرتُه ﷻ. لذلك فالتعقيبُ بوصفه ﴿لَطِيفٌ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ كما في الآية[1] إشارةٌ إلى التمكُّن منها وامتلاكها بكيفيَّةٍ دقيقة تُناسِب فَلْقَ الصخرة واستخراجَ الخردلة، مع سلامتها وسلامةِ ما اتَّصَل بها، مع عدم اختلال نظام كونه ﷻ وصُنْعِه. يعني: يستخرج ﷻ هذه الخردلة سليمةً، وتكون الصخرةُ على هيئتها لا تَفْسُد حالَ استخراجها منها؛ لذلك قال جل وعلا: ﴿...يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

---

(1) أي في قوله تعالى: ﴿فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16].

وهذا معنى جميلٌ يُبين لك لُطْفَ الله تعالى وقدرتَه التامة على أصغر الأشياء، بحيث يستخرجُها ويُوصِلها بذلك الرفق، ولا ينبني على ذلك الإتيانِ فسادٌ لها ولا فسادٌ حالَ استخراجها مما حولها.

❋ ❋ ❋

ويلاحظ المرءُ أن اسم الله تعالى «اللطيف» ﷻ قد ورد في سبع آياتٍ في القرآن الكريم؛ خمس آيات منها ورد فيها مقرونًا باسمه ﷻ «الخَبير»[1]، وآيتانِ فقط ورد فيهما «اللطيف» مفردًا بدون «الخبير»[2].

ومعنى الخِبْرة بعد اللُّطْف: سَعة العِلْم، فهي من [خَبُرَ، يَخْبُرُ، خُبْرًا]، يعني: أن الله تبارك وتعالى بعد لُطفه في معرفة الأشياء ودقائقها ورِفقه بها، فإنه خبيرٌ ﷻ بها.. مُطَّلِعٌ عليها.. عارِفٌ بكل أحوالها. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]، يعني: لطيفٌ وخبيرٌ

---

(1) وهي كالتالي:

1 - قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103].

2 - وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: 63].

3 - وآية «لقمان» التي نشرحها هنا: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16].

4 - وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 24].

5 - وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34].

(2) وهما:

1 - قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100]، وسيأتي شرحُها.

2 - وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: 19].

بمواقع الإحسان، وبمواقع مَنْ يستحق هذا الإحسان، وبمواقع إيصال هذا الإحسان لِـمُسْتَحِقِّيه.

(فائدة)

ينبغي على المرء المسلم أن يتعلم هذه المعاني لكي يَذْكُرَ اللهَ تعالى ويُوَحِّدَه ويَدْعُوَه بها، وألَّا يَفتُرَ اللسانُ والقلبُ عن ذكره ﷻ، وكذلك أن تَتجرَّد النفسُ إلى الله جل وعلا، وأن تخرج مما هي فيه من الرُّكُون إلى الخَلْق والاستعانة بهم والتوكل عليهم، وإلى المسارعة إلى مَنْ يُنقذه ويُغيثه ويَتوسَّط له ويعطيه ويمُده. وفي الوقت نفسِه يَتعلم مراقبة الله تعالى، وأنه ناظرٌ إليه.. مُطَّلِعٌ عليه.. مُتَمَكِّنٌ منه، فإذا كان عالِمًا بالخردلة مُتَمَكِّنًا منها قادِرًا عليها.. يعلم على أيِّ الأحوال وفي أيِّ الأماكن هي، فما بالُكَ بِكَ أيها العبد؟!..

ولذلك كان هذا السؤال: ما هي علاقة هذه الآية الكريمة بقصة لقمان عليه السلام وابنه؟

والجواب: أن الله تبارك وتعالى ذكر قصة لقمان عليه السلام، وذكر وصاياه لولده: ﴿**يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان: 13]، ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿**وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ**﴾ [لقمان: 14]، ثم قال بعد ذلك: ﴿**يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: 16]. وذلك كله قبل قوله تعالى: ﴿**يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ**..﴾ [لقمان: 17].

وكأنَّ الله تبارك وتعالى قَدَّم هذه الآية الكريمة: ﴿**يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ**...﴾، على قوله: ﴿**يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ**...﴾ [لقمان: 17، 18]، إلى آخر الوصايا؛ وذلك لِيُرَبِّيَ في ذِهن الولد وقَلْبِه الخشيةَ من الله تعالى، وأنه ليس ثَمَّ شيءٌ في هذا العالَـم إلا واللهُ تعالى مُطَّلِعٌ

عليـــه: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: 3]، مُتَمَكِّنٌ منه، قادِرٌ عليه، تَنْفُذ فيه قدرتُه ومشيئتُه. فعندما يَتربَّى الولـدُ على الخشية والخوف ومراقبة الله تبارك وتعالى، فإنه حينئذٍ يُسارِع إلى إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وغير ذلك من الوصايا التي وَصَّى بها لقمانُ عليه السلام ولـدَه كما ذكر القرآن الكريم.

وهذا سلوكٌ نتعلمه، نُرَبِّي عليه الأولادَ كما ورد مثل ذلك عن السلفُ رحمهم الله تعالى.

***

ثانيًا: قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100].

وهذه الآية الكريمة جاءت بعد أن وَصَـل إلى يوسفَ عليه السلام أبـوه وإخوتـه وسـجدوا لـه وتَحَقَّقتْ رؤياه عليه السلام؛ قال الله تعـالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: 99، 100].

ومَنْ يتأمل هذه السورة الكريمة يفهم شيئًا يفيده جدًّا مـن معنـى اسـم الله «اللطيـف»، فكل سورة يوسف من أولها إلى آخرها.. كلها لُطْفٌ من الله عز وجل[1].

(1) يعني من بداية قصة يوسف عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف: 4، 5]، حتى نهاية هذه القصة عند قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ

وانظر إلى ألطاف الله تعالى المُتتابِعة على يوسف ﵇، حتى وَصَل إلى ما وصل إليه كما عَلِمنا في نهاية قصته. ولسنا بصدد التفسير للسورة الكريمة، وإنما نختصر. فقط مواضع اللطف اختصارًا يُظْهِر المطلوب في الاسم المشرَّف:

* **اللُّطْف الأول**: أن الله تبارك وتعالى لَطَف بيوسف ﵇، فجعل إخوته هؤلاء يَكِيدون له كيدًا: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 8، 9].

تُرى لو لم يكيدوا له كيدًا، يعني لو لم يأخذوا يوسفَ من أبيه ويذهبوا لـ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: 12] كما يقولون، ثم بعد ذلك يُلقوه في غياباتِ الجُبِّ[1] ويرجعوا إلى أبيهم.. تُرى لو لم يحدث ذلك منهم هل كان سيحدث ما حدث؟!..

فأولُ هذا اللطف إذًا: أنهم قد أخذوا يوسفَ من أبيهم يعقوب ﵉، وأبوهم لا يريد أن يأخذوا يوسفَ معهم أبدًا؛ لأنه لا يأمَنُهم عليه، ولأنه يعلم أن الشيطان لن يتركهم حال أَخْذِهم ليوسف ﵇. ويأتي لطفُ الله تعالى على خلاف ما يريد يعقوب ﵇.

فجَعَل ﷻ من الكَيد لُطفًا، وهو ما يُعَلِّم المرءَ أن قضاء الله كلَّه حَسَنٌ، وأنه مطالَبٌ بعبودية الله تعالى في السراء والضراء، وأن ما يظنه شرًّا إذا هو الخير من حيث لا يعلم.

عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100].

(1) «الجُبُّ»: البِئْر التي لم تُبْنَ بالحِجارة. و«غَيابَات الجُبِّ» أي: قَعْره، والمفرد: غَيَابة. انظر «مختار الصحاح» مادة: [ج ب ب]، ومادة: [غ ي ب].

فلُطْفُ الله تبارك وتعالى الأول بيوسف: أنَّ يعقوب أطاع أولادَه فأخذوا يوسفَ منه. ولو لم يكن أولُ لطفٍ كذلك لَـمَا وصلنا إلى هذه النهاية التي جاءت في آخر السورة.

* **واللطف الثاني**: أنه ﷻ صَرَفهم عن أنْ يقتلوه عليه السلام أو أن يَطْرحوه أرضًا، لكي يَجِدَه هؤلاء السيَّارةُ – القافلة – ويأخذوه ويبيعوه لعزيز مِصر.

فانظر إلى لُطْف الله تعالى في هذا السياق!

هم – إخوة يوسف عليه السلام – يقولون: ﴿**ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا**﴾. و«**اطْرَحُوهُ أَرْضًا**» يعني: انْفُوهُ إلى أرضٍ بعيدة لا يمكن أن يَصِل فيه يوسفُ إلى أبيه عليهما السلام بعد ذلك[1].

ثم يقول قائلٌ منهم: ﴿**لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ**﴾ [يوسف: 10].

وكان يمكن أن يقتلوه أو يطرحوه أرضًا كما اتفقوا، لكنَّ اللهَ تعالى قد قَدَّرَ ليوسف عليه السلام أن ينشأ في بيت العزيز؛ ليتحول الحالُ ويرجع أبوه ويرجع إخوتُه ليسجدوا له، كما سنرى في بقية القصة.

تُرى لو أُلْقِي في أرضٍ بعيدةٍ هل كانت ستتحقق هذه الأحداث؟! فكان إلقاؤه إذًا في الجُبِّ لُطْفًا.

---

(1) «وتَنْكيرُ (أرضًا) – في قوله تعالى: ﴿**أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا**﴾ – وإخلاؤُها من الوصف: للإبهام، أي: أرضًا مَنْكورةً مجهولةً بعيدةً مِن العُمران. ولذلك نُصِبَتْ نَصْبَ الظروفِ المُبهَمة». انظر – بتصرف يسير: تفسير «أبو السعود»، [ج4/ ص109]. طبعة دار الفكر – الطبعة الأولى – سنة 1420هـ.

* **والثالث**: أنه كان يمكن ألَّا يذهبَ به هؤلاءُ السيارة - الذين وجدوه - إلى مصر.. لكن هذا لطف الله تعالى به: أنْ ساقَهُ ﷻ إلى مصر؛ ليتحولَ المُلْكُ له ويَجِيئَه إخوتُه كما ذكرت الآيات.

* **والرابع**: أنه كان يمكن أن يَشْترِيَه أحدٌ غيرُ العزيز وامرأته. فما الذي يجعل عزيزَ مصر نفسه يشتري طفلًا عبدًا قد أُلْقِي به في هذا الجُبِّ؟! كان يمكن أن يشتري من أشراف الناس عبيدَهم الذين يستحقون أكثرَ من ذلك، ولكن هذا لطف الله تبارك وتعالى.

* **اللطف الخامس**: أَخَذَهُ بعد ذلك عزيزُ مصر، ونشأ هناك، وراودته عن نفسه امرأةُ العزيز.. لماذا؟!

..لِيدخُل السجن!

تُرى لو لم تُراوِدْه امرأةُ العزيز عن نفسه، لَبَقِيَ عبدًا في بيتها إلى النهاية. وما تحقق أبدًا هذا الذي قد تحقق له إلا لَـمَّا أُخِذَ إلى السجن.

* **السادس**: أُخِذَ إلى السجن.. فجاء لُطف الله تبارك وتعالى التالي:

دخل معه السجنَ فتيانِ، وكان لكلٍّ منهما رؤيا رآها؛ قال الله تعالى: **﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾** [يوسف: 36]. ففسَّر لكلٍّ منهما رؤياه: **﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾** [يوسف: 41]، فعُلِمَ حينئذٍ معرفةُ يوسف عليه السلام بالتَّعْبير[1].

(1) «عَبَرَ» الرُّؤيا: فَسَّرها، وعَبَّرها أيضًا، تَعْبيرًا. انظر: «مختار الصحاح»، مادة: [ع ب ر].

ولما رأى المَلِكُ رُؤياه أخبره الذي نَجَا من الفَتَيانِ بمعرفة يوسف بالتعبير، ثم أوَّلها له يوسفُ عليه السلام، فقال الملِكُ: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: 50، 51]. فظَهَرَتْ براءتُه عليه السلام، وذلك من لُطْف الله تعالى به.

* **السابع**: ولما ظهرت براءة يوسف عليه السلام قال المَلِكُ: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي﴾ [يوسف: 54]، فقال يوسفُ عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: 55]، فتحول المُلْك ليوسف عليه السلام حينئذٍ.

وجَرَتِ الأحداثُ بعد ذلك بين يوسف وإخوته وهم لا يعلمون أنه أخوهم، حتى عرَّفهم في النهاية: ﴿...قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: 90، 91].

ولو لم يكن كذلك لَـمَا كان يمكن أن يأتي بأهله: أبيه وخالتِه[1] - التي هي كأمه كما في الحديث[2]- وإخوتِه. فلو لم يكن يوسفُ عليه السلام في حاشية المَلِك، لَـمَا كان عزيزًا لمصر أبدًا، و لَـمَا جعله على خزائن الأرض. فلو لم يكن ذلك فمِن أين كان سيرى إخوته؟! ومن أين

(1) «وقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ [يوسف: 99]، قال السُّدِّي وعبدُ الرحمن بن زيد بن أَسْلَم: إنما كان أباه وخالتَه، وكانت أمُّهُ قد ماتت قديمًا». انظر: «تفسير ابن كثير»، آية: [99] من سورة يوسف عليه السلام.

(2) قال ﷺ: «**الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**». رواه البخاري في صحيحه [2699].

سيَرُدُّ له بضاعتَهم؟ ومن أين سيقول لهم: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ [يوسف: 59]؟.. إلى غير ذلك مما ذكر الله تبارك وتعالى في قصته عليه السلام.

فكل هذه المعاني من أولها إلى آخرها فيها لطفُ الله تبارك وتعالى، فاللهُ جل وعلا هو الذي قد أَبْدَعَها، يعني اخترعها على غير مثال سابق. فهذه القصة مُرَتَّبة بترتيبه هو سبحانه وتعالى، لا دَخْلَ لأحدٍ فيها البتة، وكلُّ شيءٍ في العالم ترتيبُه. كلما عَرَض ليوسف عليه السلام عارِضٌ، إذَا بعناية الله تعالى تأخذه إلى الحال الأخرى التي يُريدها اللهُ تبارك وتعالى، وهكذا.. حتى وصل إلى قوله لَّما خَرُّوا له سُجَّدًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ..﴾ [يوسف: 100]. أي: بهذا اللطف الذي رَتَّبَ به الربُّ عز وجل هذه الأحداثَ لِتَصِلَ إلى هذا الحقِّ الذي وصلت إليه القصةُ في نهايتها.

ثم قال عليه السلام: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾، و«السِّجْن» هنا بمعنى: الجُبُّ، بدليل أنهم لم يَرَوْهُ في السجن. فيوسفُ عليه السلام لا يريد أن يُحْرِج إخوتَه بتَذْكيرِهم بالجُبِّ، ولكنه قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾، وهذا أدبٌ آخر من يوسف عليه السلام مع إخوته: فلم يكن بينه وبين إخوته نَزْغُ الشيطان؛ حيث كان صغيرًا وهم كِبارٌ، وهم الذين سَعَوْا به إلى أن يقتلوه أو أن يَطْرَحوه أرضًا أو أن يُلْقوه في الجُبِّ. ومع ذلك تأدَّب معهم حتى لا يُحْرِجَهم، قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾، فلم يَنْزِغ الشيطانُ بينهما، وإنما كان نَزْغُ الشيطان فيهم، وكانت المخالفةُ منهم، وكان منهم ما وقع بأبيهم حتى ابْيَضَّتْ عيناه من الحزن.. كان منهم كل ذلك، لم يكن من يوسف عليه السلام أبدًا، ولكن هذا هو الأدب الذي رأيناه منه عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾..

ولذلك في النهاية قال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾، يعني: إن ربي لطيفٌ بما يشاء أن يلطف به، بِلُطْفه قد قَدَّر ذلك كله، ورَفَقَ في إيصاله على هذا النحو؛ لِيتمَّ ذلك المراد لله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾: «العليم» بما كان وما يكون وما كان لو كان كيف كان يكون، و«الحكيم» في تقدير هذه الأمور وترتيبها على ما حَدَث؛ لترى قدرة الله تعالى وترى تربية الله تعالى.. وترى ترتيب الله تعالى.. وترى لطف الله تعالى، الذي يُرَتِّب لهم ويوصِّل لهم برفقه من حيث لا يحتسبون ومن حيث لا يعلمون.

ولو رأى المرءُ ظاهرَ هذه الأمور كلها على هذا النحو لكان له تخيُّلٌ آخرُ؛ يقول: «لا يمكن هذا.. وهذا ما كان ليحدث، ولماذا حدث هذا؟ ولماذا كان هذا الترتيب؟...» إلى آخر ذلك. وإذَا بترتيب الله تعالى على هذا النحو من اللطف من أول القصة إلى نهايتها.

وهذا يُعَلِّم المرءَ أنَّ اليُسر كامِنٌ في العُسر، ويعلمه أنْ يَرضى بقضاء الله كله، وأن يُفوض ويسلِّم لله تعالى في اختياره، وأن يتَّهم عقلَه القاصر وفَهمه الكليل[1] عند تقدير حكمة الله تعالى في الأشياء، وأنَّ وراء ذلك ما لا يعلمه أو يصل إليه علمُه.. فضلًا عن أن يدرِك حكمتَه أو أن يُلِمَّ بعاقبته.

***

ثالثًا: قوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

[الأحزاب: 34].

وهذا الخطاب لزوجاتِ النبي ﷺ أمهاتِ المؤمنين، رضوان الله عليهن أجمعين.

(1) «كَلَّ» كُلُولًا: ضَعُفَ، يقال: «كَلَّ السيفُ» ونحوه: لم يقطع. فهو كَلِيلٌ وكَلٌّ. انظر: المعجم الوجيز، مادة [ك ل ل].

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾؛ إما أن تكون من «الذُّكْر» وهو: عدم النسيان، أي: التَّذَكُّر. وإما أن تكون من «الذِّكْر» وهو: النطق باللسان والكلام.

* ﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾ من «الذُّكر»، أي: تَذَكَّرْنَ ما يُتلى في بُيوتِكُنَّ، ولا تَغْفَلْنَ عنه من آيات الله والحكمة. يعنى كأنه يقول لهنَّ: تَذَكَّرْنَ ذلك عِلْمًا وعَمَلًا، أي: تَذَكَّرْنَ ما يُتلى في بُيوتِكنَّ من آيات الله ومما يكون من هَدْيِ النبي ﷺ في بُيوتِكنَّ، واذْكُرْنَ ما يَنْبَنِي على ذلك من العَمَلِ به والدعوةِ إليه وإظهارِ هذا العِلم والعمل لغيركنَّ.

ولها معنًى آخر جميل يُكَنَّى عنه بالشكر، فلما قال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ كأنه يقول لهنَّ: تَذَكَّرْنَ شُكْرَ الله تعالى على هذه النعمة العظيمة؛ أنِ اخْتَصَّكُنَّ اللهُ تبارك وتعالى يا نساءَ النبي ﷺ بهذه النعمة من آيات الله والحكمة والعمل، وأنْ شَرَّفَكُنَّ بأنْ كُنْتنَّ في بيت النبي ﷺ، فعليكنَّ أن تَكُنَّ مواردَ للخير وداعياتٍ إليه ومُبَيِّناتٍ له من قرآن الله تعالى ومن هدي النبي ﷺ ومن سيرته، علاوةً على شُكر نعمته التي اخْتَصَّكُنَّ بها في ذلك.

* ﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾ من «الذِّكْر»، أي: اذْكُرْنَ كلامَ الله تعالى، يعني ذِكرًا وعملًا، وسنةَ النبي ﷺ وهديَه كذلك.

ثم في نهاية المطاف: ﴿..إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

يعني: واعْلَمْنَ أنَّ ذلك لُطْفُ الله بِكُنَّ، ما كان ليحدث لَكُنَّ ذلك إلا لِلُطْفِ الله تعالى. ولُطْفُ الله تعالى ينبغي أن يَشْكُر المرءُ ربَّه عليه، بأن يكون أهلًا للقرآنِ والحكمة والعلم به جل وعلا، وأن يكون أهلًا لتلاوَتِها والعملِ بها والدعوةِ إليها.

فإذا كان هذا الخطاب لأزواج النبي ﷺ، فلا شك أن المرء ينتفع به كذلك، فيكون له حَظُّه من هذه المعاني مِن تَذَكُّرِها وذِكْرِها والشكرِ لها، ثم العمل بها والدعوة إليها.

ولهنَّ – أي: أزواج النبي ﷺ – معنًى زائدٌ، وهو تأنِيسُهنَّ بأَنهُنَّ أزواج النبي ﷺ وفي بيته، مما يكون ذلك داعيًا على حُسْنِ معاشرته ﷺ والقيام بحقه صلى الله عليه وآله وسلم. فكان من لطف الله تعالى بِهنَّ – وهو لطفه بأهل الإيمان كذلك – تلك الآياتُ والحكمة والموعظة والعلم والعمل بها والشكر عليها والدعوةُ إليها، كما ذكر الله تعالى.

وانظر إلى ذلك اللطف ليكون حظُّك منه ما يمكن أن يكون سببًا لسعادتك في الدنيا والآخرة.

***

رابعًا: قوله تعالى:

﴿**ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ**﴾ [الشورى: 19].

قوله ﷻ: ﴿**ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ**﴾؛ قال ابن عباس رضي الله عنه: «حَفِيٌّ بهم». وقال عكرمة رضي الله عنه: «بَارٌّ بهم». وقال مقاتِل: «لطيف بالبَرِّ والفاجر؛ حيث لم يهلكهم جوعًا بمعاصيهم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿**يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ**﴾».

وتنكير «لَطِيف» مع مجيئها على صيغة المبالغة يدل على المبالغة في اللُّطف.

وقوله تعالى: ﴿**يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ**﴾ أي: أن الله تعالى لطيفٌ بعباده، يَجْري لطفُه على عباده في كل أمورهم، ومن جملة ذلك اللطف: الرِّزق الذي يعيشون به في الدنيا وهو معنى قوله: ﴿**يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ**﴾ منهم كيف يشاء، فيُوَسِّع على هذا ويُضَيِّق على هذا على حَسَبِ مصلحةِ العباد.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: عظيمُ القوة؛ قال تعالى: ﴿...أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 165]؛ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي يَغْلِب كلَّ شيء ولا يغلبه شيءٌ ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ تذييلٌ للاسمينِ الجليلينِ على القول بعموم الإحسان على عباده - المؤمنين والكافرين - كأنه قيل: «لطيفٌ بعباده، عامُّ الإحسان بهم؛ لأنه تعالى القويُّ العزيز».

وإذا كان قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أثرٌ من آثار لُطْف الله العامِّ بعباده ورِفقه بهم - كما ذكرنا لأنه يَسَّر من الرزق للمؤمنين منهم والكفار في الدنيا - فإنَّ قوله تعالى في الآية التالية لهذه الآية: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: 20] فيه أثرٌ آخر من لطفه، ولكن خَصَّ به المؤمنين من رزق الآخرة[1].

***

خامسًا: قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

[الحج: 63].

وقوله تعالى في هذه الآية يأتي بعد قوله في الآية التي قبلها مباشرة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: 62]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإله الحقُّ الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له ﷻ؛ لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، ذليلٌ لديه.

---

(1) انظر - بتصرف كثير: «فتح القدير»، و«التحرير والتنوير»، و«تفسير الآلوسي»، و«تفسير البغوي». تفسير الآيتين التاسعة عشرة والعشرين من سورة الشورى.

وقولـه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ الآيـة، فيـه دلالـةٌ أيضًـا عـلى قدرتـه وعظيمِ سلطانه، وأنه يُرسل الرياحَ فتُثِير سَحابًا فتُمطر على الأرض التي لا نباتَ فيها وهي هامدة يابسة سوداء مَحْلٌ[1] ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: 5].

قولـه تعـالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الفـاء للتعقيـب، وقولـه: ﴿مُخْضَرَّةً﴾ أي: مخضرـة بالنبات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: «لَطِيفٌ» بعبـاده في إخـراج النبـات بالمـاء، «خَبِيرٌ» بـما في قلـوبهم عنـد تـأخير المطـر. أو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: «علـيمٌ» بـما في أرجـاء الأرض وأجزائها من الحَبِّ وإنْ صَغُر، لا يخفى عليه ﷻ خافِية، فيُوصِل إلى كلٍّ منهم قِسْطَه من الماء، فيُنْبِته به كما قال تعالى على لسان لقمان عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16].

وقوله تعالى في الآيات بعدها: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: 64، 65]، فيه أيضًا آثارٌ من لطف الله تعالى بعباده؛ بأن سَخَّر لهم ما في الأرض من حيوانٍ وجماد وزُروع وثمار، وكذلك سخر لهم الفُلك لِتسير برِفق في البحر العَجَّاج وتُلاطِم الأمواج، لِيحملوا فيها ما شاءوا من تَجائِر وبضائِع ومنافع من بلدٍ إلى بلد[2].

---

(1) «المَحْل»: الجَدْب، وهو انْقِطاع المطر ويُبْس الأرض مِن الكَلأ. يقال: بلد «ماحِلٌ»، وزمان «ماحِلٌ»، وأرض «ماحِلٌ». اهـ من «مختار الصحاح»، مادة: [م ح ل].

(2) «العَجُّ»: رَفْع الصوت، وقد «عَجَّ يَعِجُّ عَجِيجًا» و«عَجَّتِ» الريحُ: اشتدت. ونهرٌ «عَجَّاجٌ». انظر: «مختار الصحاح»، مادة: [ع ج ج].

وقوله: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ أي: لو شاء لَأَذِنَ للسماء فسَقَطَتْ على الأرض فهَلَكَ مَنْ فيها، ولكنْ مِن لُطفه ورحمته وقدرته ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾[1].

***

سادسًا: قوله تعالى:

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103].

وقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾؛ لعظمته وجلاله وكماله، وإن كانت تراه في الآخرة وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: 22، 23]. ولا منافاةَ بين إثباتِ الرؤية كما في آية سورة القيامة، ونفي الإدراك كما في آية سورة الأنعام؛ لأن الإدراك أخصُّ من الرؤية، ولا يلزمُ مِن نَفْيِ الأَخَصِّ - وهو الإدراك - انتفاءُ الأعمِّ - وهو الرؤية.

واختلف السلفُ في «الإدراك المَنفيِّ»، فقال بعضُهم: «معرفة الحقيقة، فإنَّ هذا لا يعلمه إلا هو وإنْ رآه المؤمنون». وقال آخرون: «المراد بالإدراك الإحاطة، ولا يلزم من عدمِ الإحاطة عدمُ الرؤية».

وقوله: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خَلَقها كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ في آية الأنعام، أي: الذي لَطف علمُه وخبرته ودَقَّ، حتى أدرك السرائر والخبايا والبواطن.

---

(1) انظر - بتصرف واختصار: «تفسير ابن كثير»، و«تفسير الجلالين»، تفسير الآيات: [62-65].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ أي: الرفيقُ بعباده - مشتق من «لَطَفَ» بفتح الطاء - يسوق عبده إلى مصالح دينه ويُوصِلها إليها بالطريقة التي لا يشعر بها العبدُ.

ويجوز أيضًا أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ تعليلًا لقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ على طريقة اللَّفِّ، أي: لا تُدركه الأبصارُ لأنه اللطيف، أي الذي لا يُدْرك بالحاسَّة، ويكون «اللطيف» عندئذ مشتق من «لَطُف» - بضم الطاء - أي: «دَقَّ»، ضد «ثَقُل وكَثُف». ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ لأنه الخبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[1].

***

سابعا: قوله تعالى:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

قال تعالى قبل هذه الآية مباشرة: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. أي: مُطَلِّع على الضمائر والسرائر، عليمٌ بما يَخْطُر في القلوب.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: «أَلَا يَعْلَمُ الخالقُ؟»[2]، وقيل معناه: «أَلَا يَعْلَمُ مَخْلوقَه؟»[3]. والأول أولى لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾. و«اللطيف» هو العالم بخبايا الأمور والمدبِّر لها برِفقٍ وحكمةٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، و«الخبير» الذي لا يَعْزُب عنه الحوادث الخفية التي من شأنها أن يخبر الناسُ بعضُهم بعضًا بحُدوثها.

---

(1) انظر - بتصرف واختصار: «عمدة التفسير»، و«تيسير الكريم الرحمن»، و«تفسير أبي السعود»، و«التحرير والتنوير»، تفسير الآية الثانية بعد المائة من سورة الأنعام.

(2) ويكون اسم الموصول «مَن» فاعل للفعل «يَعْلَم»، والمفعول به محذوف.

(3) ويكون الفاعل ضمير مستتر في الفعل «يَعْلَم»، يعود على الله عَزَّ وَجَلَّ، و«مَنْ» مفعول به.

وبعد أنْ أَنْكَرَ اللهُ على مَنْ ظَنَّ انتفاءَ عِلْمِ الله بِما يُسِرُّون - في قوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ...﴾ الآية - أَعْلَمَهُمْ أنه يعلم ما هو أعمُّ من ذلك وما هو أخفى من الإسرار من الأحوال.

وفي الآيتين إخبارٌ من الله تعالى بسِعَةِ علمه وشُمول لُطفه ﷻ. ويجوز أن يكون المراد هنا بقوله ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ أي: الذي لا تدركه الحواسُّ، ويكون معنى الآية: «ألَا يعلم اللهُ ﷻ مخلوقَه؟» بلى.. سبحانه، وهو اللطيف الذي لا تُدركه حواسُّ مَخْلوقِيه، الخبير بأحوالهم[1].

* * *

حظ العبد من اسمه تعالى «اللطيف»

حَظُّ العبد من هذا الوصف: الرفقُ بعباد الله تعالى، والتلطُّف بهم في الدعوةِ إلى الله والهدايةِ إلى سعادة الآخرة، من غير ازْدِرَاءٍ وعُنْفٍ، ومن غير تَعَصُّبٍ وخِصام. وأحسنُ وُجوه اللُّطف فيه هو الجَذْبُ إلى قَبول الحق بالشمائلِ والسِّيَرِ المَرْضِيَّة والأعمالِ الصالحة، فإنها أَوْقَعُ وأَلْطَفُ من الألفاظ المُزَيَّنة[2].

* **فالحظُّ الأول** مُتعلِّقٌ بالآخرة، وهو ألَّا تُقَصِّر في أن تكون رفيقًا بالعباد، تَتلطَّف بهم في إيصال معرفةِ الله لهم ودعوتِهم إلى طريق ربهم ﷻ، وهدايتِهم إلى سعادة الآخرة.. سعادة الأبد، يعني أن لا تكون صادًّا عن سبيل الله ﷻ بأقوالك وأفعالك وتصرُّفاتك

(1) انظر: تفاسير «عمدة التفسير، تيسير الكريم الرحمن، التحرير والتنوير». تفسير الآية الرابعة عشرة من سورة الملك. وانظر أيضًا: «التحرير والتنوير». تفسير الآية الثانية بعد المائة من سورة الأنعام.

(2) انظر: «المقصد الأسنى» [ص72].

السيئة، بل ينبغي أن تكون رفيقًا بعباد الله تعالى، مُتلَطِّفًا بهم في الدعوة إلى الله تعالى والهداية إلى سعادة الآخرة، من غير ازْدِراءٍ وعُنْفٍ، ومن غير خِصام وتعصُّب. وأحسنُ وجوه اللطف أن يكون ظاهِرُك وهَيْئتُك وكلُّ ذلك سببَ جَذْبِ الناس إلى محبة النبي ﷺ ومحبة الله تعالى.

* **والحظ الثاني** هو أن تتلطف في إيصال البِرِّ والإحسان لهم، وقد ذَكَر العلماء في ذلك المعنى حديثَ جابر ﵁ أنه باع جَمَلَهُ إلى النبي ﷺ قبل أن يدخُلَا المدينة، فاشترط عليه جابرٌ ﵁ ظَهْرَه، يعني اشترط عليه أنْ يُوَصِّله إلى المدينة ثم يَسْتَلِمه النبيُّ ﷺ منه بعد أن يصل إلى المدينة عليه.

وانظر إلى هذا اللطف الجميل في البِر! وقد ذكرنا في بداية تعريف اللطف أن «اللَّطَفَة» هي الهدية التي تُهدى أو التُّحفة التي يُتْحِف بها المرءُ إخوانَه ويَبَرُّهم بها، وأن يتوصل بكل سبيل حَسَنٍ إليهم في إيصال هذه الألطاف والمَبَرَّات إليهم.

يقول جابر ﵁: «فلما رَجَعَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة أعطاه جَمَلَهُ وأعطاه ثَمَنَه»[1].

وذلك من حُسْن البرِّ واللطف منه ﷺ؛ أنه وَجَدهُ يحتاج هذا الجملَ، تُراه يَرُدُّ الجملَ ويأخذ ثمنَه؟ لا.. ليس ذلك من اللطف والبِر به، وليس من إيصال الهدية والصِّلة وتلك اللَّطَفَة - كما عرَّفناها - والمَبَرَّة إليه، فتَرَكَ له جَمَلَه وثمنَه ﷺ!

فينبغي فُشُوُّ هذه الأخلاق من صفات الله تعالى بين أهل الإيمان، ينبغي أن تتفشَّى بينهم هذه الأخلاق في تحبيب الناس في الله تعالى وأخذِهم إليه سُلوكًا وقولًا وعملًا، وكذلك في هدايتهم إلى سعادتِهم سعادةِ الأبد، وكذلك في إيصال المَبَرَّات والهدايا

---

(1) انظر: قِصة الجَمَل مُطوَّلةً في «صحيح البخاري» [2097، 2718]، و«صحيح مسلم» [715].

والصِّلات واللطائف إليهم، على سبيل هذه المعاني التي يتحقق فيها المرءُ بهذا الاسم المشرف، وأن يأخذ حظه منه[1].

* **والحظ الثالث:** أنْ تُوحِّد اللهَ تعالى بهذا الاسم وتَدْعُوَه به، كأنْ تقول: «يا لطيف الْطُفْ بنا»، وأن تُقبِل على الله تعالى بعدما عَلِمتَ شيئًا من لُطفه ﷻ في كَوْنِهِ وفي أرضه وفي سَمائه وفي خَلْقه وفي عِباده.. إلى غير ذلك من آثار عظمته ﷻ التي أشرنا إليها.

فإنك ما عَرَفْتَ معنى اسم الله تعالى «اللطيف» وعرفتَ سَعة لُطفه ﷻ إلا لِتَعرف حظَّك من ذلك، ثم تدعوه جل وعلا به، وتوحِّده به.. بهذا الاسم المشرف المعظَّم «اللطيف» ﷻ.

❁ ❁ ❁

(1) لا سيما بين أهله؛ عن أبي قلابة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ**». رواه الترمذي في سننه [2612]، وقال: «هذا حديث حسن، ولا نعرف لأبي قِلابة سماعًا من عائشة». ورواه الإمام أحمد في مسنده [6/ 47]، قال الشيخ شُعيب في التحقيق: «حديث صحيح لغيره». قال المناوي في «الفَيْض»: «**وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ**، أي: أرفقُهم وأبرُّهم بنسائه وأقاربه وأولاده وعشيرته المنسوبين إليه» اهـ. ولا شك أنه ﷺ كان القُدْوة في ذلك، فقد قال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**» رواه الترمذي في سننه [3895]، وقال: «حديث حسن غريب صحيح». وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها في حديث قصة الإفك الطويل: «وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ **اللُّطْفَ** الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ» رواه البخاري في صحيحه [2661].

ثانيًا

شرح اسم الله «**القدوس**»

سبحانه وتعالى

مقدمة

اسم الله «القدوس»

سبحانه وتعالى

إنَّ اسم الله المشرف «القدوس» من الأسماء الحسنى التي للمؤمنين الأتقياء منها حظ كبير، بل وللأمة كافة حتى تتقدس وتكون أهلًا للعُلُوِّ والرِّفعةِ، وتَنَزُّلِ النَّصرِ عليها في الدنيا، ولمجاورةِ الله تعالى في جنته في الآخرة.

أن تسود أخلاق الطهارة والتنزيه في المؤمنين وبينهم وبين غيرِهم لَنَقْلَةٌ عظيمة لهم في أن يعودوا إلى ما كان عليه أصحاب النبي ﷺ – وهو أمل كل غيور – فيستحقوا بركة الله ورحمته، ولذا قدَّمنا هذا الاسم الكريم: «القدوس» سبحانه وتعالى..

مسجد الهدي المحمدي

الظاهر – القاهرة

الفصل الأول

معاني اسم الله تعالى «القدوس»

- الدليل على اسم الله تعالى «القدوس»
- لطيفة حول قلة ورود اسم الله تعالى «القدوس» في القرآن الكريم
- سبب اقتران اسم الله «القدوس» مع اسمه «الْمَلِك» في القرآن الكريم
- المعنى اللغوي
- معنى «القدوس» في حق الله تعالى

و«القدوس» جل جلاله وتقدست أسماؤه جاء في القرآن والسنة، وأجمعتْ عليه الأمة. ولا يجوز أن يقال في مخلوقٍ «القدوس» هكذا مطلقًا من غير إضافة ولا تقييد، لا اسمًا ولا صفةً، ولا يجوز إذا أضيف أو نُكِّر أنْ يقع وصفًا. ويجب على ذلك التنبيه والاحتياط[1].

الدليل على اسم الله تعالى «القدوس»

و«القدوس» قد ورد ذكرُه في القرآن الكريم مرتين فقط:

الأولى: قوله تعالى: ﴿**هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ**﴾ [الحشر: 23].

والثانية: قوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ**﴾ [الجمعة: 1].

وقبل البَدء نذكر لطيفةً حول قِلَّة وُرود اسم تعالى «القدوس» في القرآن الكريم..

وهي لطيفة قد يَسْتَغْرِبُها المرءُ بعضَ الشيء؛ وهي أنه ليس في القرآن الكريم كثرةُ ذِكْرٍ لهذا الاسم «القدوس» وإنْ كان يحتوي الأسماءَ الحسنى كما يقول الحليمي! وظَنِّي – والله أعلم – لأنه ليس هناك قدوس إلا الله. فهو «القدوسُ» ﷻ، ليس غيرُه.. ولا أحد سواه، فلا يحتاج أن تُضربَ له الأمثالُ ولا أن يتكرر ذِكرُه، فهو وصف لله تعالى لا كلام فيه ولا يمكن أنْ نُنَاقش: هل هو قدوسٌ ﷻ أم لا؟! فهو أوضح الواضحات. فإذا لم يكن الربُّ ﷻ هو القدوسَ، فمَنْ ذا يكون؟ إذا كان هو القدوس فقد أُغْلِق بابُ الكلام وانتهى

(1) انظر: «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، للإمام القرطبي ﵀، ص274 – مكتبة فياض، المنصورة- الطبعة الأولى- سنة 1427هـ، 2006م.

لكونه ﷻ معلومًا من هذا الوصف الجليل أنه لله تعالى لا يشترك معه فيه أحدٌ. إذ مَنِ الذي تَقَدَّسَتْ أسماؤُه وصفاتُه حتى نأخذَ في التَّكرار في كونه ﷻ قدوسًا أم لا؟.. أو مَن الذي ادَّعَى له ذلك؟.. وهذا يدلنا على عظمة الله وجلاله ﷻ من هذا الاسم المشرف.

هذه نظرة قاصرة من العبد الفقير في عدم تكرار هذا الاسم المشرَّف في القرآن الكريم..

سبب اقتران اسم الله «القدوس» مع اسمه «المَلِك» في القرآن الكريم

ونلاحظ أن اسم الله تعالى «القدوس» جاء مقترِنًا مع اسم الله تعالى «الملِك».

و«الملِك القدوس» معناها: أنه ﷻ ليس مَلِكًا فقط، بل هو قدوسٌ؛ لأنَّ الملِك يمكن أن يُطْلَق على مُلُوك الدنيا، وملوكُ الدنيا ممتلئون بالكِبر والغَطْرَسة والعُجْب، والتباهي بالمال والسلطان، والتعالي بالقوة وبكثرة الجُنْد، وكلُّهم يحاول أن يعلو الآخرَ.. وأن يَقْهَرَه.. وأن يكون هو المَلِك الأكبر. ولكنَّ اللهَ تعالى مُتَقَدِّسٌ عن ذلك كله، فلو قلتَ: «السميع القدوس» لا تتأتى. لو قَرَنْتَ أيَّ اسم آخر من الأسماء الحسنى لا يأتي مع اسمه «القدوس». إنما الذي يأتي مع القدوس هو الملِك الذي لا مَلِكَ فوقَه ﷻ، وهو في ذات الوقت الملِك المقدَّس جل وعلا. وكل ملوك الدنيا ليسوا على هذا الحال من التقديس مهما كانوا مؤمنين ومهما بلغوا في درجة التُّقى والدِّين والإقبال على الله تبارك وتعالى؛ لذلك تجد هذا الاسم المشرَّف مُقْتَرِنًا باسمه «الملِك» ﷻ.

وكذلك ليكون علامةً لملوك الدنيا أنهم قد أعطاهم اللهُ تبارك وتعالى المُلْكَ مع ما هم فيه من اتِّباعِ الشهوات، ومن المَيْلِ وراء النزوات والملذات، وصَرْفِ أوقاتهم في غير ما يعود بالصالح في معاش الناس ومعادهم؛ من القيام بالعدل والحق والقِسْطِ، والسَّهرِ على

مصلحة رَعِيَّتِهم؛ ليتقدسوا ويأخذوا بحظهم من اسمه القدوس ﷻ، فيتصفوا بتلك الصفات العليا، فتظهر عليهم آثارها الجميلة.

المعنى اللُّغوي

و«القدوسُ» مما لم يكن معلومًا قبل الإسلام، وهو يدل على الطُّهْر، يعني: الطهارة، ومن ذلك: ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: 21]، يعني: الأرض المطهَّرة. وتسمى الجنة حظيرة القُدُس، يعني: حظيرة الطُّهْر. وجبرائيل عليه السلام يسمى روح القدس، إشارةً إلى طهارته في نفسه، وطهارته فيما ينقل إلى أنبياء الله تعالى ورسله من الكلام المطهَّر والخبرِ المطهر عن الله تعالى. وإنه مُتَّصِفٌ بذلك ليدلَّ على أنَّ ما يُوحِيه الربُّ جل وعلا إلى المخْتَصِّين من عباده بالرسالة أو النبوة مُتَّصِفٌ بهذه الطهارة.

و«القدوسُ» من أسماء الله تعالى؛ لأنه مُنَزَّه جل وعلا عن الأضداد والأنداد والصاحبة والوَلَد، تعالى اللهُ عما يقول الظالمون عُلوًّا كبيرًا.

وبعضُ أهل العلم يقول: «القدوس» هو الطاهر المُنزَّه عن العيوب والنقائص. والتقديسُ أي: تَنْزِيه الله ﷻ، «يُقَدِّس ربَّه» يعني: يُنزِّه ربَّه ﷻ، وفي التهذيب: «التَّقْدِيس، والقُدْس، والمُتَقَدِّس، والقُدُّوس، والمُقَدَّس» كل ذلك تَنْزِيهُ الله تعالى.

و«التَّقْدِيسُ» كذلك يُطْلق على التَّبْرِيك والتَّطْهِير؛ «أن يُقَدِّس شيئًا» يعني: يُبَرِّكه، «وأن يُقَدِّس شيئًا» يعني: يُطَهِّره، وهذا المعنى الأخير سيأتي معنا في حديث سنذكره لاحقًا: «**كَيْفَ تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لَا تَأْخُذُ لِضَعِيفِهَا مِنْ شَدِيدِهَا حَقَّهُ**»(1).

---

(1) سيأتي تخريجه.

وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30]، «يُقَدِّسون» اللهَ تعالى يعني: يُنَزِّهونه ﷻ، أو «نُقَدِّسُ لَكَ» يعني: نُطَهِّر أَنْفُسَنا لكَ، وكذلك «نُقَدِّسُ لَكَ» بمعنى: نفعل بِمَنْ أطاعَكَ؛ يعني: نُطَهِّر - أي: الملائكة - مَن أطاعك[1].

معنى «القدوس» في حق الله تعالى

قال ابن الحصَّار[2]: لا ينبغي أن يختلف أحد من أهل اللغة أن القدس: الطهارة، ولكن المفعول قد يُراد له اسمُ الفاعل، بمعنى أنه المطهِّر لغيره، وقد يراد به اسم المفعول بمعنى: أنه المطهَّر في نفسه. وإذا كان اسم المفعول يراد به ما يراد باسم الفاعل فالقدوس: أولى بالله جل ثناؤه من كونه قدوسًا على الإطلاق، فهو طاهر في نفسه، مُنَزَّهٌ مُطَهِّرٌ لغيره، فهو اسمٌ يتضمن جميعَ صفات الكمال، ونفيَ كل نقيصةٍ لا تليق بجلاله، وإيصال التطهير لغيره كملائكته وأنبيائه ومَن شاء من خلقه.

فهذا الاسم يكون من صفات الذات ويكون من صفات الأفعال، فهو المُنَزَّه المُنَزِّه والمُطَهَّر المُطَهِّر وفي ضمن هذا أن مَنْ لم يكن طاهرًا في نفسه فلا يُطهِّر غيرَه. والشيطانُ رِجْسٌ نَجِسٌ، وكذلك حِزبُه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28].

---

(1) انظر - بتصرف كثير: «الأسنى» للإمام القرطبي، [ص 274، 275]. و«لسان العرب»، مادة: [ق د س]. والحاصل أن مادة [ق د س] تدل على معنيين رئيسيين؛ الأول: الطهر، والثاني: البركة. وعليه يأتي تفسير العلماء لهذا الاسم المشرف.

(2) هو عليُّ بنُ محمدِ بن محمد بن إبراهيم بن موسى، أبو الحسن الفقيه الخَزْرَجِيُّ الإشبيليُّ الفاسِيُّ المعروف بابن الحصَّار. كان إمامًا فاضلًا كثير التصنيف في أُصول الفقه، وصنَّف كتابًا في الناسخ والمنسوخ، والبيان في تنقيح البرهان، وأُرجوزة في أصول الدين شَرَحها في أربع مجلدات، وتقريب المدارك في رفع الموقوف ووَصْل المقطوع من حديث مالك اخْتَصر فيه بعضَ كتاب التمهيد لابن عبد البرّ. وتوفِّي سنة إحدى عشرة وست مائة. اهـ. من «الوافي بالوفيات» للصَّفَدي.

قال ابن العربي[1]: ونَعْتُه تعالى «القدوس» وتعيينُ التقديس له يُوجب له أوصافًا عَشَرة:

الأول: تقديسُه عن الشُّرَكاء.

الثاني: تقديسه عن النُّظَراء.

الثالث: تقديسه عن الأَضْداد.

الرابع: تقديسه عن الأولاد.

الخامس: تقديسه عن الأَوْهام.

السادس: تقديسه عن التَحْدِيد (وهو التحديد الذي نفاه أهل الإسلام جميعًا وأهل السنة خصوصًا).

السابع: أنه لا تُدْرِكه الأبصارُ بالتصوير.

الثامن: تقديسه عن الحاجة إلى الخَلْق.

التاسع: أنَّ تطهير غيرِه إليه.

---

(1) الإمام، العلامة، الحافظ، القاضي، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، ابن العربي الأندلسي، الإشبيلي، المالكي، صاحب التصانيف. وُلِد في سنة ثمانٍ وستين وأربع مائة. ارتحل مع أبيه لطلب العلم فسمعًا الحديث ببغداد ودمشق وبيت المقدس والحرم الشريف ومصر. وتفقه بالإمام أبي حامد الغزالي، والفقيه أبي بكر الشاشي، والعلامة الأديب أبي زكريا التبريزي، وجماعة. ورجع إلى الأندلس بعد أن دَفن أباه في رحلته وصَنَّف وجَمَع، وفي فنون العلم بَرَع، وكان فصيحًا، بليغًا، خطيبًا. صنَّف كتاب «عارِضة الأحوذي في شرح جامع أبي عيسى الترمذي»، وفسَّر القرآن المجيد، فأتى بكل بديع، و«العواصم من القواصم» وأشياء سوى ذلك. صنَّف في الحديث والفقه والأصول وعلوم القرآن والأدب والنحو والتواريخ، واتسع حالُه، واشتهر اسمُه، وكان رئيسًا محتشِمًا، وكثُر إفضاله، وأنشأ على إشبيلية سُورًا من ماله! أدخل الأندلس إسنادًا عاليًا، وعِلمًا جمًّا. وكان ثاقِب الذهن، عَذْب المنطق، كريم الشمائل، كامل السُّؤْدُد. وَلِيَ قضاء إشبيلية، فحُمِدت سياسته، وكان ذا شدة وسَطوة، فعُزِل، وأقبل على نَشْر العلم وتدوينه. توفي ﷺ سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة. انظر – بتصرف: «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

العاشر – وهو فائدتها –: أنَّ له الكمالَ في كل وَصْفٍ لاستحالة النَّقْصِ عنه(1).

ولقد أحسن من قال:

تَبارَكَ مَنْ أَخْفَى القَبِيحَ بِفَضْلِه وعَمَّ جَمِيعَ العالَمِينَ نوَالُهُ

(1) وقسَّم الإمام ابن القيم ﷺ توحيد الأسماء والصفات ـ أو التوحيد القولي كما سمَّاه في النونية ـ إلى قسمين. القسم الأول: سلب – أي: نفي – النقائص والعيوب عن الله تعالى. والقسم الثاني: إثبات صفات الكمال له ﷻ. والقسم الأول – وهو سلب النقائص والعيوب عن الله تعالى – يتكون من نوعين: النوع الأول – وهو سلب لمتصلٍ، وضابطه: نفي كل ما يناقض صفة من صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، فقال ﷺ:

والأولُ التَّنْزِيهُ للرحمن، عن وصفِ العُيوب وكلِّ ذي نُقْصانِ
كالموت والإعياء والتعب الذي ينفي اقتدار الخالقِ الدَّيَّان
والنومِ والسِّنَة التي، هي أصلُه وعُزوب شيءٍ عنه في الأكوان
وكذلك العبث الذي تَنْفِيه حِكْـ ـمتُه وحمد الله ذي الإتقان
وكذلك تركُ الخلق إهمالًا سُدى لا يبعثون إلى معاد ثانِ
كلا ولا أمر ولا نهي عليـ ـهم من إله قادرٍ ديَّان
وكذلك ظُلم عباده وهو الغنيـ ـيُّ فما له والظلم للإنسان
وكذلك غَفْلته تعالى وهو علـ ـلَّام الغيوب فظاهر البطلان
وكذلك النسيان جلَّ إلهنا لا يَعْتَرِيه قطّ من نسيان

والنوع الثاني – وهو سلبٌ لمنفصلٍ، وضابطه تنزيه الله تعالى أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تنبغي إلا له، وتنزيهه عن الشريك والظهير – أي المعاون – والشفيع إلا بإذنه واتخاذ الصاحبة والولد والكُفْء والولي؛ قال ﷺ:

سَلْبٌ لمتصلٍ ومنفصلٍ هما نوعانِ معروفان أما الثاني:
سلبُ الشريك مع الظهير مع الشَّفِيـ ـع بدون إذن الخالِقِ الديَّان
وكذلك سَلْبُ الزوجِ والولد الذي نسبوا إليه عابدو الصُّلبان
وكذلك نفيُ الكُفْءِ أيضًا والوَلِيـ ـيِ لنا سوى الرحمن ذي الغُفْران

ومن النوع الثاني أيضًا تنزيه أوصاف الكمال الثابتة له ﷻ عن مماثلة صفات المخلوقين لها. وسيأتي الكلام عليه في التعليق على كلام الإمام الغزالي ﷺ. انظر – بتصرف كثير: «القصيدة النونية» مع شرحها للشيخ محمد خليل هرَّاس [2/ 57–65].

هُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ فاسْمَعْ ثَنَاءَهُ هُو المَلِكُ القُدُّوسُ جَلَّ جَلالُهُ
تَعَاظَمَ عَنْ ذِكْرِ العِبادِ ولم يَزَلْ يُقَدِّسُهُ قَبْلَ العِبادِ كَمَالُهُ

قال الحَلِيمِيُّ(1): ومما قَدَّسَ اللهُ سبحانه به بني آدم ما أنزله في كتبه وأَوْدَعَ قلوبَ رُسُله من حكمته، وما شَرَعَ لهم من الطهارة بالماء الطَّهور، وما شرع لهم من مناجاته في صلاتهم. ثم جعل سبحانه كل شيء يسبح بحمده، فهو «السُّبُّوح القدوس» بكل اعتبار، و«الطاهر المطهّر» لكل طاهر، وكلُّ طهارة وطهور فهي منه وإليه، تعود في جنته وحظيرة قدسه.

فإذا علمتَ أنَّ كل طهارةٍ ونزاهةٍ وقدسٍ من قدسِهِ وطهارته ونزاهته، فكذلك كل نور من نوره، وكل علم من علمه، وكل قوة من عزته.. إلى منتهى أسمائه الحسنة وصفاته العلى. فلا مناقضة بين هذا الاسم وبين سائر الأسماء لاحتوائه عليها(2).

---

(1) انظر ترجمته في شرح اسم الله «الودود» [ص 20] الطبعة الثانية.

(2) انظر– بتصرف واختصار: «الأسنى» للإمام القرطبي [ص275 – 278]. وممن قال من التابعين أن «القدوس» بمعنى [الطاهر] التابعيُّ الجليل وَهْبُ بنُ مُنَبِّه ﷺ، وقال مجاهد وقتادة رحمهما الله: «القدوس» أي: «المبارك»؛ ذكره ابن كثير في تفسيره. ولعل قول مجاهد وقتادة أنه [القدوس] أي: المبارك، مرجعُه إلى أن «القُدسَ» مِنْ معانيه «البركة»، و«التقديسَ» مِنْ معانيه «التبريك» كما مرَّ. وحاصلُ ما ذكرناه في اسمه تعالى «القدوس» ثلاثة أوجه. **الأول**: أنه المبارك. **الثاني**: أنه الطاهر في نفسه والمطهَّر المنزَّه عن القبائح والعيوب والنقائص ﷻ. **الثالث**: أنه المنزِّه المطهِّر لغيره. وقال ابن القيم ﷺ في النونية:

هذا وفي أوصافه القدوس ذو التْـ تَنْزِيه بالتعظيم للرحمنِ

فأضاف التعظيم إلى التنزيه، ولعله استنبط هذا من قول الإمام أبي جعفر الطبري ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿**قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ [البقرة: 30]، قال الإمام الطبري ﷺ: «والتقديس هو: التطهير والتعظيم.ومنه قولهم: «سبوحٌ قدوسٌ»، يعني بقولهم «سبوحٌ»: تنزيهٌ لله، وبقولهم «قدوسٌ»: طهارةٌ له وتعظيم». اهـ. وأخرج الطبري عن أبي صالح ـ مولى أم هانئ ﷺ: [و﴿**وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾: نُعَظِّمك ونُمَجِّدك]، وعن مجاهد: «نُعَظِّمك ونُكَبِّرك».

رأي الإمام الغزالي في اسم الله تعالى «القدوس»

وننتقل إلى كلام الإمام الغزالي رحمه الله، فإنه لَفَتَ الأنظارَ إلى شيءٍ - وهو شيءٌ قلَّما يلتفت المرءُ إليه في كلام العلماء وغيرهم، وهو أنَّ «القدوس» يعني: «المُتَنَزِّه عن النقائص والعيوب... وكذا وكذا» وفقط.

وقبل أن نذكر ذلك نُورِدُ تعريفَ الغزالي لاسمه تعالى «القدوس»، حيث يقول رحمه الله[1]: «هو المُنَزَّهُ عن كل وَصْفٍ يُدْرِكُه الحِسُّ، أو يَتَصَوَّرُهُ الخيالُ، أو يَسْبِق إليه الوَهْمُ، أو يَقْتَرِنُ به الضميرُ، أو يَقْضِي به التَّفْكِيرُ..» سبحانه وتعالى.

فهو المُنَزَّهُ عن كل وَصْفٍ يُدْرِكُه الحِسُّ ولا شك أنه لا يدركه شيءٌ سبحانه وتعالى. «أو يَتَصَوَّرُهُ الخيالُ» أي: لا يُدْرِكُ خيالُ المرءِ تصورًا لربه.. فهو مُتَقَدِّس عن ذلك سبحانه وتعالى. «أو يَسْبِق إليه الوَهْمُ» أن المرء يتوهم الربَّ سبحانه وتعالى على أسماءٍ أو صفاتٍ معينة؛ كلُّ ذلك متقدِّس عنه سبحانه وتعالى. «أو يَقْتَرِنُ به الضميرُ» يعني: أن يأتي في ضمير المرء شيءٌ يتخيل أنه يُشْبِه ربَّه سبحانه وتعالى؛ فكل ذلك يتقدس عنه سبحانه وتعالى. «أو يَقْضِي به التَّفْكِيرُ» أي: أن يُفَكِّر المرءُ في شيء يقضي به أن ربه كذلك، فيَتَقَدَّس اللهُ سبحانه وتعالى عن أن يقتضي التفكير القاصِر - من الناس عمومًا - أن يَصِلوا إلى شيء يُكَيِّفون به ربَّهم سبحانه وتعالى، أو أن يتوهمونه به.. أو غير ذلك.

والكلمةُ التي يَوَدُّ أنْ يقولَها ويَلْفِتَ النظرَ إليها الإمامُ الغزالي رحمه الله هي قوله: «ولستُ أقولُ: مُنَزَّهٌ عن العُيوبِ والنَّقائِصِ؛ فإنَّ ذِكْرَ ذلك يكاد يَقْرُب من تَرْكِ الأَدَب، فليس من

(1) انظر: «المقصد الأسنى»، للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله، [ص51، 52]، مطبعة الصباح – دمشق، الطبعة الأولى وقد جعلنا كلام الإمام الغزالي بين تنصيص، هكذا «...». وانظر ترجمته رحمه الله في شرح اسم الله تعالى «الودود» سبحانه وتعالى [ص 46] الطبعة الثانية.

الأدب أن يقول القائلُ: مَلِكُ البَلَدِ ليس بِحَائِكٍ ولا حَجَّامٍ. فإنَّ نَفْيَ الوجود يكاد يُوهِم إمكانَ الوجود، وفي ذلك الإيهام نَقْصٌ».

فكأنه يقول: مَنْ نحن حتى نُنَزِّه الربَّ ﷻ عن العيوب والنقائص، «فإنَّ ذِكْرَ ذلك» اللفظ لا أَدَبَ فيه، أو يقرُب ألَّا يكون فيه أدبٌ؛ أن تقول: مُنَزَّهٌ عن العيوبِ والنقائصِ!

فعندما تقول: «هذا المَلِكُ ليس بحائِكٍ». فهذا ليس مَدْحًا ولا تَمْيِيزًا له، «فإنَّ نَفْيَ الوجود يكاد يُوهِم إمكانَ الوجود» فإذا نَفَيْتَ النقصَ - كمثل أن تقول: هو ليس حَجَّامًا! - كأنكَ تُوهِم إمكانَ أن يكون كذلك، «وفي ذلك الإيهام نَقْصٌ» يعني: في إيهام إمكان الوجود هذا النقصُ.

بل ينبغي أن نقول: إن الله ﷻ مُتَّصِفٌ بكل صفات الكمال - وهو كذلك غَنِيٌّ عن أن يقولها أحدٌ - لأن له الأسماءُ الحسنى والصفاتُ العليا، وهو متصف بها قبل خلق الخلق، وله ﷻ الثناءُ الحسن الجميل.

ثم يصحح الإمام الغزالي التعريف الذي يذهب إليه فيقول ؒ: «القدوسُ هو المُنَزَّهُ عن كلِّ وَصْفٍ مِنْ أوصافِ الكَمالِ الذي يَظُنُّه أكثرُ الخلق»؛ لأن الخَلْق قد وَصَفُوا أنفسَهم بهذه الأوصاف، وعندما أرادوا أن يُقدسوا ربَّهم ويمدحوه مدحوه بكونه موصوفًا بهذه الأوصاف التي هي صفات كمال، ولكن في حقهم، مثل: عِلْمِهم وقُدْرَتِهم وسَمْعِهم وبَصَرِهم وكلامِهم وإرادَتِهم واخْتِيارِهم. حيث وضعوا ألفاظًا بإيذاءِ هذه المعاني وقالوا: إنَّ هذه أسماءُ كمالٍ، وقالوا (ثناءً عليه): إن الله سميعٌ.. بصيرٌ.. كذا كذا، ونفوا عنه ما هو نَقْصٌ في حَقِّهم مثل: الجهل والعَجْز والعَمَى والصَّمَم والخَرَس.

أي كان غايتُهم في الثناء على الله تبارك وتعالى هو وصفَه أن وصفوه بما هو أوصاف كمالهم، من العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام وغير ذلك، وإنْ نَفَوْا عنه أوصافَ نَقْصِهم.. لا هو مُنَزَّهٌ عن أوصاف كمالهم هذه.

تُرى هل هو مُنَزَّهٌ إذًا عن صفات كمالهم أو منزه عن صفات نقصهم؟

الجواب: أنه منزهٌ عن صفات كمالهم، فإذا وَصَفُوه بالعلم، فالعلمُ مَرَدُّه إليه ﷻ، وكذلك السمع والبصر مَرَدُّه إليه؛ وهذه الأُولَى.

والثانيةُ: أنَّ عِلْمَهم وسمعَهم وبصرَهم وكلامَهم وإرادتهم ومُلْكَهم... كلُّ ذلك هل يُشبه ما يَتَّصِف به الربُّ؟ أو أن هذا من جِهة اللغة وما يُقَرِّب للأفهام فقط؟ فالسمعُ غيرُ السمعِ، والبصرُ غيرُ البصرِ، والمُلْكُ غيرُ الملكِ، بل كلُّ ذلك فضلُ الله تعالى، فلا يشبه خلقُ الله تعالى الربَّ ﷻ، وفي الوقت نفسه: اللهُ تعالى مُتَنَزِّهٌ عن أنْ يُشْبِهَ خَلْقَه في ذلك، يعني في علمهم وسمعهم وكلامهم وفي أوصاف كمالهم، فهو مُنَزَّه عن أنَ يشارِكَ عبادَه؛ إذ كلُّ أحدٍ مُخْتَصٌّ بصفاتِه، واللهُ من باب الأولى له صفاته التي تليق بالذات لا يشبهه فيها أحدٌ، ولا يشارك هو ﷻ فيها أحدًا.. مُنَزَّهٌ عن ذلك ﷻ. كما أن ذاته المقدسة لا تشبه الذوات ولا يشبهها ذات.

أما أوصاف النقص فهذه ليست لها علاقة بنا، فإذا كانت أوصافُ الكمال هو مُنَزَّهٌ عنها، فلا مكان لذِكْرِ أوصافِ النقص التي هي للخَلْقِ الناقص؛ لذلك يقول: «مُنَزَّهٌ عن أوصافِ كمالِهم»، فمن باب الأولى ليس هناك أوصاف نقص[1].

---

(1) راجع لما سبق «المقصد الأسنى» [ص51، 52]. وخلاصة ما سبق: أنَّ أوصاف الكمال الثابتة لله تعالى مُقدَّسةٌ ومُنزَّهةٌ عن مماثلة صفات المخلوقين لها، فلا يقال عِلْمُه كعِلمهم ولا قُدرته كقدرتهم ولا رحمته كرحمتهم... ونحو ذلك، فمَنْ شبَّه

هذه نظرة من الإمام محل تأمل لنظر أهل العلم، ذكرناها للأمانة العلمية ومحاولة البحث فيها.

❁ ❁ ❁

صفاتِ الله تعالى بصفات خَلْقه لم يكن عابدًا لله في الحقيقة، وإنما يعبد وَثَنًا صَوَّره له خيالُه ونَحَتَهُ فِكْرُه. وأمَّا ربُّ العالمين ﷻ فهو فوق ما يظنون وأعلى مما يتوهمون؛ فإنه كما أنَّ ذاته لا تُشبهها ذواتُ المخلوقين فصِفاتُه لا تشبهها صفاتُهم. ولكي يكتمل هذا التنزيه عند أهل السنة والجماعة - وهم سلفنا الصالحون والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين - فإنهم يُنَزِّهون صفاتِ الله تعالى عن التَّعْطيل والجَحْد لها - على عكس الجَهْمِيَّة ومَن تَبِعهم من المتكلمين - فإنَّ مَنْ نَفَى ما وصف اللهُ به نفسَه أو وصفه به رسولُه ﷺ فإنه في الحقيقة لا يعبد شيئًا موجودًا وإنما يعبد عدمًا مفقودًا، لما تَوَهَّم أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه أخذَ يَنْفِيها بوَهْمِه الفاسد.

وبالجملة؛ فالناسُ في هذا المقام ثلاثة أقسام: «مؤمنٌ مُوحِّدٌ، ومُشَبِّه، ومُعَطِّل». فـ«المؤمن الموحِّد» يَصِفُ اللهَ تعالى بما وَصَفَ به نفسَه ووصفه به رسولُه ﷺ من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، من غير تمثيلٍ ولا تشبيهٍ، ومن غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ لشيءٍ من أوصاف الله تعالى. والقسم الثاني هو «المُشَبِّه» الذي يُشبِّه صفاتِ الله بصفات المخلوقين أو يَتعرَّض لمعرفة كُنْهِهَا وحقيقتها التي لا يعلمها غيرُ اللهِ تعالى. والقسم الثالث هو «المُعَطِّل» وهو مَن نَفَى شيئًا من صفات الله تعالى، لذلك قال الإمام ابن القيم ؒ:

هَذَا وَثَانِي نَوْعَيِ السَّلْبِ الذِي ... هُـــو أَوَّلُ الأَنْـــواعِ فِي الأَوْزَانِ

تَنْزِيهُ أَوْصَافِ الكَمَالِ لَهُ عَنِ التْـ ... ـــتَشَبُّهِ والتَّمْثِيـــلِ والنُّكْـــرانِ

لَسْـنَا نُشَـبِّه وَصْـفَهُ بِصِـفاتِنا ... إنَّ المُشَـــبِّهَ عابِـــدُ الأَوْثـــانِ

كَـلَّا وَلَا نُخْلِيـهِ مِـن أوصـافِه ... إنَّ المُعَطِّـــلَ عابِـــدُ البُهْتَـــانِ

وانظر - بتصرف: «القصيدة النونية» للإمام ابن القيم مع شرحها للشيخ محمد خليل هرَّاس - رحمهما الله تعالى. [2/ 65-67] طبعة دار الشريعة - سنة 1424هـ، 2004م - الطبعة الأولى. وقد شرح المؤلف هذه الجزئية بتفصيل أكثر من هذا في دروس «توضيح شرح العقيدة الطحاوية»، فارجع إليها.

الفصل الثاني

حظ العبد من اسم الله تعالى «القدوس»

- <u>الحظ الأول</u>: تنزيه العبد لعلمه وإرادته
- <u>الحظ الثاني</u>: تقديس العبد نفسَه ليكون أهلاً لمجاورة القدوس ﷻ في حظيرة قُدُسه سبحانه وتعالى
- <u>الحظ الثالث</u>: الدعاء باسم الله تعالى «القدوس»:
  - أولاً: دعاء المسألة
  - ثانيًا: دعاء الثناء والمدح
  - ثالثًا: دعاء العبادة
  - الدعاء بالوَصْف الذي تَضمنه الاسم

وحَظُّ العبد من اسمه المقدَّس ﷻ من المسائل المهمة؛ وهو علاقة المؤمنين بهذا الاسم المبارك: كيف يَدْعون الله تعالى بكونه قُدُّوسًا؟ وكيف يكون لهم حظُّهم من التخلق - بما يليق بالعباد - بهذا الاسم المشرف؟ وقد ذكرنا أن المرء لا بد أن يكون له حظ من الأسماء الحسنى كـ«الرَّحِيم، والرزَّاق، والوهَّاب، والسلام، والمؤمن...» إلى غير ذلك من الأسماء: أن يتصف - بما يليق بالعبد - بصفات الله تعالى؛ حتى يترقى إلى هذه الدرجات العالية في توحيد الرب ﷻ ومعرفته ومحبته والتعلق به.

الحظ الأول: تنزيه العبد لعلمه وإرادته

فإذا أراد العبدُ أن يأخذ حظَّه من هذا الاسم المشرف «القدوس»، فعليه أن يُقَدِّس – أي: يُطَهِّر أو يُنَزِّه – إرادتَه وعلمَه أولًا.

ولكن كيف يُنَزِّه العبدُ إرادتَه وعلمَه؟

أولًا: تنزيه العلم:

يُنزه العبدُ علمَه بأنْ يُحَصِّل من العلوم ما لو سُلِبَ هذا في حِسِّه وتَخَيُّلِه بَقِيَ رَيَّانًا بالعلوم الشرعية الشريفة الكُليَّة المتعلِّقة بالله تعالى ومعرفته وتوحيده ومحبته.

وأن يتنزه في عِلمه عن كل العلوم التي لا يكون لها حظٌّ في معرفته بربه ﷻ وإقباله عليه. وبقاءُ هذه العلوم الشرعية الكُلية الإلهية أن يكون ريَّانًا منها، مُمتلِئًا منها. وهي العلوم التي لا حدود لمحموديتها؛ فهي محمودة إلى أقصى درجة ممكنة ولا غاية لحَمْدها لأنها العلوم المتعلِّقة بالله تعالى وأسمائه وصفاته ﷻ؛ إذ كلما ازداد المرءُ منها ازداد محبةً لربه.. وتعلقًا به.. وتوحيدًا له. كلما ازداد منها ازداد قلبُه نورًا وطمأنينةً وسكينةً ويقينًا وإخباتًا وتوكلًا وخوفًا وخشيةً ورجاءً وميلًا إليه ﷻ وزهدًا في الدنيا وإقبالًا على الآخرة

واستقامةً على طريق الله تعالى. فهذه هي العلوم التي لا حَدَّ لمحموديتها، ولا غاية لها فيُقْبِل المرءُ عليها ويتزود منها.

فالمرءُ يبحث عن أيِّ عِلْمٍ إذًا حتى يكون مُتَقَدِّسًا؟

الجواب: يبحث عن العلم الشريف المتعلِّق بالرب ﷻ وتوحيده ومحبته ومعرفته والإقبال عليه والتعلُّق به وحُسْنِ التوكل عليه واليقين فيه... إلى آخر ما ذكرنا من هذه العلوم المحمودة المتعلقة بالرب ﷻ وأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

ثانيًا: تنزيه الإرادة:

وكيف يقدِّس المرءُ إرادتَه؟..

يعني كيف يُقَدِّس قَصْدَه وتَوجُّهَه ونيته وطلبه؟

الجواب: أنه يتقدس له ذلك بأن تكون إرادتُه منزَّهةً أن تدور حول الحظوظ البشرية التي ترجِع إلى لذَّاتِ الشهوة والغضب ومُتْعَة الطعام والمنكَح والملبَس والملمَس والمنظَر، وما لا يَصِل إليه من اللَّذات إلا بواسطة الحسِّ والقلب، فيقدِّس إرادتَه بألَّا يريد إلا الله تعالى، ولا يبقى له حظٌّ إلَّا في الله تعالى، ولا يكون له شوقٌ إلَّا إلى لقاء الله تعالى، ولا فَرَحٌ إلَّا بالقرب من الله تعالى.

وعلى الجملة: فينبغي أن يخرج المرءُ من أن يُشارك البهائمَ في حُظوظها[1]؛ لأن هذه الحظوظ التي ذكرنا من لذة الشهوة ومتعة المأكل والمشرب والملبس والملمس والمنظر... كل ذلك يشارك المرء فيه البهائم، فينبغي على المرء أن يَتَنَزَّه في إرادته عن أن يشارك البهائمَ فيها، وأن تكون حظوظُه في أن يُقَدِّس إرادتَه عن غير الله تعالى، فلا يريد إلا الله جل

(1) راجع لما سبق «المقصد الأسنى»: [ص 51 – 53].

وعلا، ولا يبقى له حظٌّ إلا حظه من الله تعالى. فإنْ حَصَّل هذا الحظ من الله تعالى فقد حصَّل سعادة الدنيا والآخرة. فإذا لم يكن له ربُّه فمَنْ يكن له؟! وإذا فاتَهُ حَظُّهُ من ربه فماذا حَصَّل؟! حَصَّل الزائلَ الذي يشارك فيه البهائم!!..

وفي ذلك الكلام عِبرةٌ تُطلِع المرءَ على حاله، وتؤكد عليه أن حظوظه وإرادته غير مقدسة لأن كل ذلك مُتَوجِّه إلى تحصيل شهواته التي يُشارك فيها البهائمَ، ويُضَيِّع فيها وقتَه وجهدَه، ويُفْنِي فيها عُمرَه وصحتَه. وإذا تيقن المرء من نفسه هذا الحالَ السيئ فليسارعْ إلى التوبة من ذلك والاجتهاد في تطهير إرادته؛ هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: ألا يكون له شوقٌ إلَّا إلى لقاء الله تعالى، ولا فَرَحٌ إلا بالقرب من الله تعالى. يعني: ليس له شوق إلى امرأة جميلة، ولا إلى مأكل شَهِيٍّ، ولا إلى ملبَس كذا ولا في كذا.. وإنما شوقه إلى لقاء الله تعالى. ولا يفرح بتحصيل الزائل من الدنيا مهما كان، إنما فَرَحُه بالله؛ إنْ امتلأ قلبه بالفرح بربه حاز كل الأفراح في الدنيا والآخرة، وإن فاتَهُ ربُّه فهو في الغَمِّ والنَّكَدِ الذي يعيش فيه المرءُ اليوم.. قال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس: 58].

فجلالة المريد على قدر جلالة مراده. يعني: من كان مراده ونيته الإخلاص لله تعالى وتحصيل رضا ربه جل وعلا، فدرجته عند الله جليلة كقدر مراده ذلك. ومَنْ هِمَّتُه ما يَدْخُل في بَطْنِه فقِيمَتُه ما يَخْرُج منه، لذلك ضرب النبيُّ ﷺ ما يَخْرُج من المرء مثلًا للدنيا... الحديث. أكلوا وشَرِبوا وشَبِعوا وجامَعُوا وحَصَّلُوا كلَّ الشهوات، وبعد ذلك خَرَّجُوا كلَّ

هـذا في الحُشُـوش[1]، فضَرَب ﷺ ذلـك كلـه مـثلًا للـدنيا التـي يَتَعـارَكون عليهـا.. هـي في النهاية ما يَخْرُج منهم.

ومَنْ لم يكن له هِمَّةٌ سوى الله فدَرَجَتُه على قَدْرِ هِمَّتِه، قال تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 163].

ومَن تَرَقَّى في علمه في معرفته بربه ﷻ وقَدَّس إرادتَه عن الشهوات نَزَلَ بُحْبُوحَةَ[2] حَظِيرةِ القُدُس، وكان أهلًا لمجاورة الله تعالى في جَنَّتِه.

الحظ الثاني: تقديس العبد نفسه ليكون أهلاً لمجاورة «القدوس» في حظيرة قُدُسه ﷻ

ولاستكمال المعاني المتعلقة بأن يأخذ المرءُ حظَّه من اسم الله تعالى «القدوس» - بعد أن يقدِّس إرادتَه وعلمَه - نذكر الكلام الآتي للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى[3]:

يقول ﷺ: «أن يُداوم» المرءُ «على تقديس نفسه» يعني: على تطهير نفسه «للملِك القدوس ﷻ؛ فيُطَهِّر نفسَه ظاهرًا وباطنًا. وليَعلمْ أنَّ جَنة القُدُس» التي قدَّسها الله تبارك وتعالى وهي حظيرة القدس «لا يَسْكُنُها إلا مَنْ قَدَّس نفسَه لله تعالى؛ لأن الله تعالى هو القدوس، ولا يمكن أن يجاورَه في جنته إلا مَن كان قُدوسًا كذلك» يعني: مُتطهِّرًا «كما قال الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: 73]»، وقال أيضًا ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ

---

(1) «الحُشُوش» يعني: الكُنُف ومَواضع قَضاء الحاجة، الواحد: حَشٌّ - بالفتح . وأصله من «الحَشّ»: البُسْتَان؛ لأنهم كانوا كثيرًا ما يَتَغوّطون في البسَاتِين. اهـ من «النهاية في غريب الحديث»، مادة: [ح ش ش].

(2) «بُحْبُوحَة الدار»: وسطها - بضم الباءين. انظر: «مختار الصحاح»، مادة: [ب ح ح].

(3) انظر: «إغاثة اللهفان»، للإمام ابن القيم ﷺ، «الباب السابع: في طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه» [ص52 - 59]. طبعة مكتبة عاطف، بتحقيق وتصحيح: فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي ﷺ.

ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل: 32]، فلا يدخل الجنة إلا من كان طيبًا متطهرًا متقدِّسًا يليق بمجاورة القدوس ﷻ. فكيف يكون هو ﷻ القدوس ويجاوره في جنته مَن فيه خَبَثٌ في إرادته وعلمه ونفسه ظاهرًا وباطنًا؟! ومَن كان فيه هذه الشهوات التي يُشارك فيها البهائمَ كيف يجاور ربَّه القدوس ﷻ؟!

لذلك قال: «وهذه الجنة لا يَسْكُنها إلا مَنْ قَدَّس نفسَه لله تعالى، فلا يدخلها خَبِيثٌ ولا مَنْ فيه شيءٌ من الخَبَث» فمَنْ تطهَّر في الدنيا ولَقِيَ اللهَ طاهرًا من نجاسته دَخَلَ الجنة بغير مُعَوّقٍ يَعُوقُه. ومَنْ لم يَتَطَهَّر في الدنيا؛ فإنْ كانت نجاستُه عَيْنِيَّه كالكافر - لأن الله تعالى سَمَّى المشركين ﴿**نَجَسٌ**﴾ [التوبة: 28] - لا يدخل الجنة بحالٍ. وأما مَنْ كان فيه نَجَسٌ، أي: فيه خَبَثٌ مِن خَبَثِ الدنيا من أهل الإيمان، فإنْ كانت نجاستُه كَسْبِيَّةً عارضةً دَخَلَ الجنة بعدما يَتطهر في النار من تلك النجاسة. حتى إنَّ أهل الإيمان إذا جاوَزوا الصراطَ حُبِسوا على قَنْطرة بين الجنة والنار، فيُهَذَّبون ويُنَقَّوْن من بقايَا بَقِيَتْ عليهم؛ قَصُرَتْ بهم عن الجنة ولَمْ تُوهِبْ لهم دخولَ النار، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا وكانوا أهلًا لمجاورة الله تعالى أُذِنَ لهم في دخول الجنة[1] وهذا ينبغي أن يُخِيفَ المرءَ وأن يُطْلِعَه على مَوْقِفِه الذي يلاقي به ربَّه ﷻ في الآخرة، فيسارع في تقديس نفسه على سنة الرسول ﷺ وأصحابه المُكرَّمين.

وحتى في الدنيا فإن الله تعالى لا يَدْخل عليه إلا أن يكون مقدَّسًا.

فاللهُ ﷻ بِحِكْمَته جَعَلَ الدخولَ عليه في الدنيا مَوْقوفًا على الطهارة، فلا يدخل المصلِّي عليه حتى يَتطهَّر. وكذلك جَعَل دُخولَ الجنة موقوفًا على هذه الطهارة، فلا يدخلها إلا

---

(1) عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِى الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِيَدِهِ: لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِى الدُّنْيَا**». أخرجه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: [2440].

طَيِّبٌ طاهرٌ كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ...﴾ [الزمر:73]، فهما طَهَارَتانِ: «طهارة البدن» و«طهارة القلب»، ولهذا شُرِعَ للمُتَوضِّئِ الذي يَتطهر لِيَقِفَ أمامَ ربِّه ﷻ عَقِيبَ وُضوئه أن يقول: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**»(1).

فإذا تَطهَّر في ظاهرِه وبدنِه فإنه لا يستطيع أنْ يَقِفَ بين يَدَيْ ربه ﷻ إلا أن يكون طاهرَ القلب كذلك؛ قد تَطَهَّر قلبُه من الأَرْجاس والأَنْجاس والآفات السيئة والأخلاق الذميمة والصفات المرذولة التي لا يليق بالمرء أن يقف بها أمام الله ﷻ. لذلك أمرك اللهُ تعالى إذا أرادكَ أن تقف بين يديه أن تكون مُتطهرًا بالطهارتين؛ مُتقدِّسًا في بدنكَ وقلبكَ حتى يَقْبلَكَ ﷻ، وحتى يقبلَ منكَ ما تُقْبِلُ عليه به من العبادة ومن الذِّكر، وحتى يَفْتَحَ عليك ﷻ - بإقباله عليكَ - بابَ التدبر والتأمل والتفكُّر في كلامه تعالى، وبذا تَتَرَقَّى درجتُك عنده تبارك وتعالى. لذلك ذُكِر أن الصلاة لا يُقبل إلا نصفها.. ربعها.. ثلثها.. إلى عُشرها، كما ورد في الأثر(2).

---

(1) أخرجه الإمام مسلم [234] دون قوله: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**». وأخرجه بتمامه الترمذي [55]. كلاهما من رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى النبي ﷺ.

(2) عن عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رضي الله عنه أنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عُشْرُهَا.. تُسْعُهَا.. ثُمُنُهَا.. سُبُعُهَا.. سُدُسُهَا.. خُمُسُهَا.. رُبُعُهَا.. ثُلُثُهَا.. نِصْفُهَا**». رواه الإمام أحمدُ رحمه الله [4/ 321] الطبعة الميمنية. قال الشيخ شعيب في التحقيق: «حديث صحيح». وبنحوه أبو داود [796]. قال المناوي رحمه الله في «الفيض»: «أراد أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص بحسب الخشوع والتدبر ونحو ذلك، مما يقتضي الكمال. وفي بعض الروايات: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ**» أي: فيُكتب له منها ما عَقَل فقط، وذلك فضلٌ عظيم عند الله؛ لأن صلاته كانت في موجب الأدب أسرع إلى العقوبة منها إلى أن يكتب له ما عَقَل، إذ لا يدري بين يديْ مَن هو حتى يلتفت إلى غيره بقلبه وهو واقف راكع ساجد بجسده!» اهـ من «الفيض»: [2/ 432] طبعة مكتبة مصر - الطبعة الثانية - سنة 1424هـ، 2003م.

فلَمَّا اجتمع له الطُّهران - الظاهر والباطن - صَلُحَ للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته؛ ولذلك كان النبي ﷺ يقول في بداية الصلاة: «**اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»[1].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «سألتُ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية[2]: كيف يُطَهِّرُ الخطايا بالبارد؟ وما فائدة التخصيص بذلك - يعني: بالماء البادر - والحارُّ أَبْلَغُ في النظافة؟».

يعني: هل الماءُ البارد هو الذي سيُطَهِّرَ الخبث والنجاسة والأَدْرَان أم الماء الحار هو الذي يُذْهِبُها؟!

يقول: «قال» يعني: شيخ الإسلام ابنَ تيمية «الخطايا تُوهِبُ للقلب حرارةً ونجاسةً وضَعْفًا» أي: حرارةَ الشهوات والإقبال عليها ومحبتها والانتظار لها والسعي إليها، فكلما

---

(1) متفق عليه من رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه: البخاري [6368]، ومسلم [58].

(2) هو أحمدُ بنُ عبدِ الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم... الحرانيُّ الأصل والمولِد، الدمشقيُّ الدار والوفاة، الحنبليُّ، المعروف بابن تيمية - «وتيمية» لقب جده الأعلى - الإمامُ العلَّامة، الحافظ الحُجة، فريدُ دَهْره، ووحيدُ عَصْره، وشُهرته تُغْني عن الإطناب في ذِكره، والإسهابِ في أمره. وُلِدَ بحَرَّان سنة 661هـ، وقَدِم به والدُه وبأخوته إلى دمشق عند استيلاء التَّتَر على البلاد سنة 667هـ، فسَمِعَ بها من الشيخ ابن عبد الدائم، وابن عساكر، وابن الصيرفي، وابن علَّان، وخَلْقٍ كثير. قرأ وبرع في علوم الحديث، ودَرَّس وأفتى، وفاق الأقران وصار عجبًا في سرعة الاستحضار وقوة الجنان والتوسع في المنقول والمعقول والإطالة على مذاهب السلف والخلف، وتصدَّر للإقراء والإفادة عدة سنين، وفسَّر، وصنَّف التصانيف المفيدة. وانتهت إليه الرئاسةُ في مذهب الإمام أحمد رحمه الله. أثنى عليه جماعةٌ من أعيان علماء عصره، مثل الشيخ تقي الدين ابن دقيق العِيد وغيره. قال الشيخ شمس الدين: «ما رأيت أحدًا أسرع انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة التي يُوردها منه، ولا أشدَّ استحضارًا لمتون الأحاديث وعَزْوِها إلى الصحيح أو المسند أو السنن، كأنَّ ذلك نُصْب عينه وعلى طَرَف لسانه». ومصنفاته أكثر من مائتي مجلد، منها: «مجموعة فتاويه»، و«السياسية الشرعية»، و«اقتضاء الصراط المستقيم»... وغير ذلك. وقد امتُحِنَ، وأُوذي مرات، وحُبس بقلعة القاهرة والإسكندرية، وبقلعة دمشق مرتين، وتوفي بها في سنة 728 هـ، ومُنِعَ قبل وفاته بخمسة أشهر من الدواة والورق. انظر: «ذيل طبقات الحنابلة»، «الوافي بالوفيات»، «الدرر الكامنة»، «العبر في خبر من غبر»، «المنهل الصافي»، «معجم المؤلفين».

أخطأ المرءُ وجدتَه قد اشتعل قلبُه بمزيد الخطايا والنظر والشهوة وسماع السوء... وغير ذلك، وفي نفس الوقت تُوهِبُ له ضعفًا لا شك؛ لأنه لـمَّا كانت هذه الخطايا قد عَلَتِ القلبَ أضعفَتْه، ولـمَّا عَلَتْهُ علاهُ هذا الرَّانُ؛ أي تلك النجاسة التي يتنجس منها القلب؛ لأن نجاسة القلب إنما هي في هذه الخطايا التي يَتَلَبَّس بها.

لذلك يقول: «فيَرْتَخِي القلبُ وتَضْطَرِم به نارُ الشهوة وتُنَجِّسه؛ فإنَّ الخطايا والذنوب لهم بمنزلة الحَطَب الذي يَمُدُّ النارَ ويُوقِدُها، ولهذا كلما كَثُرَت الخطايا اشْتَدَّتْ نارُ القلب ببقية الخطايا وضَعُفَ القلب في نفس الوقت عن مقاومة الشهوة، والماءُ يغسل الخبثَ ويُطْفِئ النارَ». لذلك قال: «بالماء البارد» حتى يطفئ هذا الماءُ البارد هذه النارَ من نار الشهوات، ويغسل هذا الخبثَ الذي عَلَا على القلب، «فإن كان باردًا أَوْرَثَ الجسمَ صلابةً» أي: عندما يكون الماءُ باردًا يورث الجسمَ صلابةً وقوةً، «فإن كان معه ثلجٌ وبَرَدٌ كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته فكان أَذْهَبَ لِأَثَرِ الخطايا» وهذا معنى كلامه رحمه الله تعالى.

والربُّ جلَّ وعلا أمرَ المؤمنين أن يَتطهروا بهذا الماء ليدخلوا على الله تعالى مُتقدِّسين به، وإن لم يجدوا ذلك الماء، أمرهم بالصعيد الطيب الطَّهُور، كما قال تعالى: ﴿**فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا**﴾ [المائدة:6]، وقال ﷺ: «**وجُعِلَتْ لنَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا**»[1]. فلم يَقْبلهم حتى يتطهروا ويتقدسوا ليدخلوا عليه تبارك وتعالى، ولا يمكن الدخولُ عليه إلا بالطهارة؛ ثم ماذا تُغني طهارةُ البدن في الظاهر عن طهارة القلب المُتَّسخ

(1) رواه مسلم [522] من رواية حذيفة ﷺ.

بأَدْران السيئات والذنوب والخطايا، لـذلك كانـت الطهارتـانِ مطلـوبتين حتـى يُقْبَـل المـرءُ ويدخل على الله تعالى.

ومِن ثَمَّ كان من الإيمان لزوم المرء هذه الطهارة وذلك التقـديس، حتـى إنـه نهـاه ﷻ أن يُصلي إلا على مكان طاهر، وألَّا يصلي في الأماكن النجسة: في المزبلة والحمام والمقبرة؛ لأنها لا ينبغي أن تكون مَحِلًّا لوقوف المرء بين يدي الله تبارك وتعالى، بل كـل مـا يتعلـق بوقـوف المرء بين يدي الله لا بد أن يكون متطهِّرًا متقدِّسًا ليليق بمقام المَوْلَى ﷻ، يعنـي: بمقـام المـرء في وقوفه بين يدي مولاه.

***

وفي نهاية المطاف في الآخرة: هؤلاء الذين عليهم هذا الخبـث يـدخلون النـار «حتـى إذا احتَمَشوا وصاروا حُمَمًا يَخرجون بشفاعة الله ﷻ ويُلْقَوْن - كما يقـول الحـديث - عـلى بـاب الجنة يُصَبُّ عليهم من نَهْر الحياة، فيَنْبُتون كما تَنْبُت الحبَّةُ في مَسِيل السَّيل» حتـى يتطهـروا ثم يدخلوا الجنة. يعني: لا يدخل الجنة أبدًا من كان عليـه شيءٌ مـن الخبـث؛ حتـى إذا أتـى اللهَ تعالى بشيء من ذلك فإنه ساعتَها لا بد أن يُتَطَهَّر.

وهـذا مـا يجعل هَمَّ المـرء اليـوم قبـل الغَدِ؛ كيف يتـطهر في كـل شيء من أمـوره؟ فهـذه الطهارة التي أمَر الله تعالى بها ليست للصلاة والوقوف بيـن يديه فقط، ولكن -كـما أشرنـا- لا بد أن يتطهر في كـل حـظ مـن حظوظـه في الـدنيا، وكـذلك أن يتطهـر في بدنـه؛ أن يُطَهـر لسانَه عما لا يليق إلا بالله تعالى.. فيطهر لسانَه عن السبِّ والشـتم والغِيبـة، فلـيس متطهـرًا مَن كان سـبَّابًا لَعَّانًـا شَـتَّامًا سـاخرًا مستهزءًا، فلـم يتقـدس ولم يأخـذ حظَّـه مـن الله تبـارك وتعالى من اسمه «القدوس» جلَّ وعلا. وكذلك أن يطهر سمعَه وبصرَه ويـدَه ورِجلَـه كـما

طَهَّر إرادتَه وعلمَه وفؤادَه. لذلك يقول النبي ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»(1). يعني: من أمور النجاسة التي ينبغي على المرء أن يتقدس منها وأن يتطهر منها، فليس المؤمن - كما ذكر في الحديث - لعَّانًا أو سبَّابًا أو فاحشًا أو بَذِيئًا(2).

وعلى ذلك؛ لكي يُقَدِّس المرءُ نفسَه ليكون أهلًا للقاء الله تعالى لا بد أن يُطَهِّر بدنَه وجوارحَه كاملةً، وأن يتطهر قلبُه وإرادتُه وعلمُه. فإذا لم يتطهر من ذلك وبقي عليه الخَبَثُ وذهب إلى الآخرة بهذا الخبث، فإنه حينئذ لا بد أن يُهَذَّبَ ويُنَقى قبل أن يَدْخُلَ على الله تعالى.

***

عَلِمَ المرءُ ما تقدم فدخل قلبَه الخوفُ والرجاء، فعَقَد العزمَ على أن يأخذ بحظه من هذا الاسم المشرَّف؛ ليكون سببًا لدخوله على الله تبارك وتعالى، وأهلًا لمجاورته في جنته ﷻ، وأن يكون قدوسًا مُتطهرًا في الدنيا، طيبًا كما ذكر الله تعالى: نزلت عليه وبه بركةُ الله حيث حَلَّ.. خَفَّتْ هِمَّتُه إلى المجاهدة في اتباع الرسول ﷺ، وسَمَتْ نفسه إلى محبة الله تعالى، فاستهانت بما تبذل في سبيل ذلك.

---

(1) متفق عليه من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: البخاري [48]، ومسلم [64].

(2) عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهُ ﷺ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ**». أخرجه الترمذي وحسَّنه [1977]، والحاكم وصحَّحه [ح: 29] الطبعة العِلْمية. [و«**الطَعَّان**» أي: العياب للناس أو الواقع في أعراض الناس بنحو ذَمٍّ أو غِيبةٍ، و«**اللَّعَّان**» أي: فاعل الفحش أو قائله، و«**البَذِيء**» هو الذي لا حياءَ له، كما قال بعض الشراح]. اهـ - بتصرف - من «الفيض» للمناوي، و«تحفة الأحوذي» للمباركفوري.

الحظ الثالث: الدعاء باسم الله تعالى «القدوس»

وهو من حظ المؤمن من اسمه تعالى «القدوس»؛ أن يدعوه ﷻ به كما ذكر: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:180]. ولدينا في الدعاء: دعاء الثناء، ودعاء المسألة، ودعاء العبادة.

أولاً: دعاء المسألة:

ودعاء الثناء ودعاء المسألة يدخلانِ بعضهما في بعض، يعني: أن يُثْنِيَ على الله تعالى بهذا الاسم المشرَّف، وأن يدعوه به ﷻ أن يُهَيِّئ له أمور طهارته وتقديسه.

بمعنى أنك إذا أردتَ أن تصير على هذا الحال من التقديس والتبريك والتطهير، أن تدعو الله تعالى باسمه «القدوس». فإذا كان لسانُكَ فيه شيء من النجاسة، ونظَرُكَ وسمعُكَ وبصرُكَ كذلك فيهم هذه الحظوظ من حظوظ الشهوات التي تُنَجِّس العينَ وتُوقِع القلبَ في هذا الرَّان وهذه النجاسات، فإنك بدعاء الله تعالى باسمه «القدوس» يوشك أن يَرْفَعَ عنك هذا النجس، ويُطهرَك ﷻ من هذه القاذورات. فإذا ما داومتَ على دعاء الله تعالى – دعاء المسألة والثناء – باسمه «القدوس»: أن يُقَدِّسَك ويُطَهِّرَكَ من أمراضك وعِلَلِكَ التي أنتَ فيها، فإنه إذا رآكَ مُقْبِلًا مُهتمًّا خائفًا على آخِرَتِكَ وخائفًا أن تُطَهَّرَ في النار.. بسبب ذلك يوشك أن يَفتح عليكَ في الدنيا، وأن يُطهرك من ذلك، وأن يُعِينَك عليه ﷻ، فيُطَهِّر إرادتَك وقلبك وعلمك وبدنك وجوارحك.

وقد ورد الدعاءُ بهذا الاسم «القدوس» ﷻ في حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ أثنى على الله تعالى به عَشْر مرات، يُكَرِّر فيها هذا الاسمَ ﷻ: «**سُبْحَانَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ، سُبْحَانَ**

المَلِكُ الْقُدُّوسُ، سُبْحَانَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ...» عشر مرات. ثم بعد ذلك دعا ﷺ، فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا وَضِيقِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1].

فهذا الدعاء؛ أن تقول: «سُبْحَانَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ، سُبْحَانَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ، سُبْحَانَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ...» فتَذْكر هذا الاسم كثيرًا ثم تدعو الله تبارك وتعالى بما شئتَ من تقديسٍ وتطهير وتبريك، تريد من الله تعالى أن يُكرمك به.

ثانيًا: دعاء الثناء والمدح:

وأمَّا دعاء الثناء والمدح؛ فورد ذلك في الركوع في قوله ﷺ: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**»[2].

وهذا الدعاء يمكن أن يكون من دعاء المسألة أيضًا؛ لأن المرء إذا أراد من الله تعالى شيئًا: أن يُثني عليه أولًا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأن يصلي على النبي ﷺ، وأن يتأدب بآداب الدعاء، ويقول: «سُبوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكة والروح»، وبعد أن يذكرها

(1) أخرجه أبو داود [5085]. والحديث حسَّنه الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار، [1/ 120]، دار ابن كثير، الطبعة الأولى - سنة 1421هـ. ونذكر تمام الحديث للفائدة: عن شَرِيقٍ الْهَوْزَنِيِّ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ ﵂ فَسَأَلْتُهَا: بِمَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَفْتَتِحُ إِذَا هَبَّ مِنَ اللَّيْلِ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ، كَانَ إِذَا هَبَّ مِنَ اللَّيْلِ كَبَّرَ عَشْرًا وَحَمِدَ عَشْرًا وَقَالَ: «**سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ**» عَشْرًا، وَقَالَ: «**سُبْحَانَ المَلِكِ الْقُدُّوسِ**» عَشْرًا، وَاسْتَغْفَرَ عَشْرًا، وَهَلَّلَ عَشْرًا، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا وَضِيقِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» عَشْرًا، ثُمَّ يَفْتَتِحُ الصَّلَاةَ». وانظر للفائدة شرح الملا علي القاري لهذا الحديث في «مرقاة المفاتيح».

(2) أخرجه الإمام مسلم [487]، وأبو داود [872]؛ كلاهما من رواية السيدة عائشة ﵂ مرفوعًا إلى النبي ﷺ. كما ورد أيضًا اسم الله تعالى «القدوس» في دعاء الثناء والمدح بعد الفراغ من صلاة الوتر: عن عبد الرحمن بن أَبْزَى ﵁ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوتِرُ بِـ﴿**سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى**﴾ و﴿**قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ و﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْصَرِفَ مِنَ الْوِتْرِ قَالَ: «**سُبْحَانَ المَلِكِ الْقُدُّوسِ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ فِي الثَّالِثَةِ». أخرجه الإمام أحمد [3/ 406] الطبعة الميمنية. قال الشيخ شعيب في التحقيق: «إسناده صحيح على شرط الشيخين». وأخرجه أيضًا بنحوه النسائيُّ [1733].

أعدادًا ما شاء الله له أن يذكرها، يدعوه بكونه السُّبوحَ القدوسَ ربَّ الملائكة والروح ﷻ، أن يَقْضِي له كذا، وأن يُطَهِّرَه من كذا، وأن يبارك عليه في كذا وكذا مما يحتاجه المرءُ، وهو لا يزال مُحْتَاجًا وسيظل مُحْتَاجًا إليه ﷻ.

ثالثًا: دعاء العبادة:

و«**سُبوحٌ قدوسٌ**» كذلك من دعاء العبادة الذي يذكره المرءُ.. يتعبد ربَّه به كما ورد عن النبي ﷺ في ركوعه[1].

الدعاء بالوصف الذي تضمنه الاسم

ومما ورد في الدعاء بالوصف الذي تضمنه هذا الاسم هذا الحديث الجميل المعاني:

«لَـمَّا قَدِمَ جعفرُ بن أبي طالب رضي الله عنه من أرض الحبشة لَقِيَهُ النبيُّ ﷺ فقال: «**أَخْبِرْنِي بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ**». قال: مَرَّتِ امرأةٌ على رأسِها مِكْتَلٌ فيه طعامٌ، فمَرَّ بها رَجُلٌ على فَرَسٍ فأصابَها فرَمَى بها. فجَعَلْتُ أَنْظُرُ إليها وهي تُعِيدُه في مِكْتَلِها وهي تقول: «ويلٌ لكَ يومَ يَضَعُ المَلِكُ كُرْسِيَّهُ فيأْخُذ للمَظْلوم مِنَ الظَّالِمِ». فضَحِكَ النبيُّ ﷺ حتى بَدَتْ نواجِذُه[2]، فقال: «**كَيْفَ تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لا تَأْخُذُ لِضَعِيفِهَا مِنْ شَدِيدِهَا حَقَّهُ وَهُوَ غَيْرُ**

---

(1) وعن الصحابية يُسَيْرَة بنتِ ياسر رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُنَّ أَنْ يُرَاعِينَ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّهْلِيلِ وَأَنْ يَعْقِدْنَ بِالْأَنَامِلِ، فَإِنَّهُنَّ مَسْئُولَاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ». أخرجه أبو داود [1501]، وبنحوه الترمذي [3583] واستغربه، والإمام أحمد في مسنده [6/ 370] الطبعة الميمنية. قال صاحبُ «عون المعبود»: [والتقديس، أي: قول «سُبحان المَلِك القُدُّوس» أو «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبّ الملائكة والرُّوح»] اهـ.

(2) «النَّاجِذ»: آخر الأَضْراس، وللإنسان أربعةُ «نَواجِذ» في أقصى الأسنان.. يقال: «ضَحِكَ حَتى بَدَتْ نَواجِذُه» إذا استَغْرَبَ. انظر- بتصرف يسير: «مختار الصحاح»، مادة: [ن ج ذ].

مُتَعْتَعٍ؟»[1]، وورد في روايةٍ أخرى؛ قال بُرَيْدةُ: «**كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لَا يَأْخُذُ ضَعِيفُهَا حَقَّهُ مِنْ قَوِيِّهَا؟»**[2].

ونُلقي بعض الضوء على هذا الحديث:

لَـمَّا قَدِم جعفر بن أبي طالب ﷺ من أرض الحبشة - وكان قد هاجر في الله تعالى، تاركًا أهله ووطنه فرارًا بدينه - لقيه النبيُّ ﷺ. والنبيُّ ﷺ كان يحب جعفرَ بن أبي طالب ﷺ حُبًّا جمًّا[3]؛ لأنه كان يشبِهُه خَلقًا وخُلُقًا، حتى قال ﷺ: «**بِأَيِّهِمَا أَفْرَحُ: بِفَتْحِ خَيْبَرَ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ؟»**[4]، وكان وافى النبيَّ ﷺ بعد فتح خيبر.

فقال ﷺ: «**أَخْبِرْنِي بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ**». وهذا من تواضع النبي ﷺ ومحبتِهِ لأصحابه وإيناسهم بإقباله عليهم، والسؤال عن أَحوال الناس وما ينفع في دين الله والدعوة إليه.

فقال جعفر ﷺ: «مَرَّت امرأةٌ على رأسها مِكْتلٌ» أي: امرأة فقيرة، ساعِية على رزقها ورزق أولادها، أو غير ذلك. والمِكْتل ما يشبه المَقْطف «فيه طعامٌ، فمَرَّ بها رجلٌ على فَرَس» رجلٌ غني متكبر يختال بما هو فيه على خلق الله «فأصابها فرَمَى بها» على سبيل الكبر والتضاحك بالفقراء والتلاعب بهم. يقول جعفر ﷺ: «فجَعَلْتُ أنظُرَ إليها وهي تُعِيدُه»

---

(1) قال المناوي في «الفيض»: «غير مُتَعْتَع - بفتح التاء، أي: من غير أن يُصيبه ويزعجه».

(2) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» [6/ 95] طبعة دار الفكر، وقال الذهبي في المهذب: «إسناده صالح» [8/ 407].

(3) جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الهَاشِمِيُّ السَّيِّدُ، الشَّهِيْدُ، الكَبِيْرُ الشَّأْنِ، عَلَمُ الُمجَاهِدِيْنَ، أَبُو عَبْدِ الله، ابْنُ عَمِّ رَسُوْلِ الله ﷺ، أَخُو عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ. هَاجَرَ الهِجْرَتَيْنِ، وَهَاجَرَ مِنَ الحَبَشَةِ إِلَى المَدِيْنَةِ، فَوَافَى الُمسْلِمِيْنَ وَهُمْ عَلَى خَيْبَرَ إِثْرَ أَخْذِهَا، فَأَقَامَ بِالمَدِيْنَةِ أَشْهُرًا، ثُمَّ أَمَّرَهُ رَسُوْلُ الله ﷺ عَلَى جَيْشِ غَزْوَةِ مُؤْتَةَ بِنَاحِيَةِ الكَرَكِ، فَاسْتُشْهِدَ. وَقَدْ سُرَّ رَسُوْلُ الله ﷺ كَثِيْرًا بِقُدُوْمِهِ، وَحَزِنَ - وَالله - لِوَفَاتِهِ. قَالَ ﷺ لِجَعْفَرٍ ﷺ: «**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**». أخرجه البخاري [2699]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أنه قال: «وَكَانَ أَخْيَرَ النَّاسِ لِلْمِسْكِينِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ». أخرجه البخاري موقوفًا [3708]. وانظر ترجمة هذا الصحابي الجليل ومناقبه الحسنة وقصة استشهاده في «سير أعلام النبلاء» [1/ 206 - 218]، طبعة الرسالة.

(4) الحديث أخرجه الحاكم [ح: 4249] الطبعة العلمية، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه». قال الذهبي في «التلخيص»: «صحيح».

أي: الطعام، ولا حول لها ولا قوة، تجمعه «في مِكْتَلِها وهي تقول» أي لهذا الراكب صاحب الفرس: «ويلٌ لك يومَ يضع المَلِك ﷻ كُرسِيَّه فيأخذ للمظلوم من الظالم». فضَحِك النبيُّ ﷺ حتى بَدَتْ نواجذُه، فقال: «**كَيْفَ تُقَدَّسُ أَمَّةٌ؟**» أي: كيف يُبارَك عليها؟.. كيف تُطَهَّر أمةٌ؟.. «**لَا تَأْخُذُ لِضَعِيفِهَا مِنْ شَدِيدِهَا حَقَّهُ وَهُوَ غَيْرُ مُتَعْتَعٍ**» يعني: هذا الضعيف يأخذ حقه، ولا يَتَتَعْتَع في أَخْذِه، أي: لا يتلجلج ولا يخشى شيئًا.

وهذا دليلٌ على العكس المفهوم من الكلام؛ «**كَيْفَ تُقَدَّسُ أُمَّةٌ؟**» يعني: ستبقى الأمة في انحطاتها وفي نجاستها وفي خِستها، طالما لا تأخذ لضعيفها حقَّه من قويِّها. ستبقى أمةً ضعيفة منكوبة لا قيمة لها ولا وزن في ميزان الأمم.

وهناك رواية أخرى بالتصريح بالبناء للمعلوم؛ قال بريدة(1): «**كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أَمَّةً لَا يَأْخُذُ ضَعِيفُهَا حَقَّهُ مِنْ قَوِيِّهَا؟**».

* * *

لعل المرء بهذا الموجز يكون قد عرف اسمًا من أسماء ربه يعرفه بها، وعرف طريقًا يُوصله به إليه، ولم يَبْقَ إلا أن يَستعينه على المجاهدة لتحقيق ذلك.

---

(1) بُرَيْدَة بن الحُصَيْب بن عبد الله الأسلمي، أبو عبد الله، وقيل: أبو سهل، وأبو ساسانَ، وأبو الحُصَيْب ؓ قال الحاكم: «أسلم بعد انصراف النبي ﷺ من بدر» اهـ. شَهِدَ غزوةَ خيبر - وأبلى فيها بلاء حسنًا - وفتح مكة، وكان معه اللواء، واستعمله النبي ﷺ على صَدَقة قومه. غزا خراسان زمن عثمان ؓ ونزل مَرْوَ ونشر العلم بها. توفي سنة 62هـ وقيل: 63هـ بمرو. انتهى من «سير الأعلام» [2/ 469-471]، و«تهذيب التهذيب».

صدر من هذه السلسلة «**الفتوحات الإلهية شرح الأسماء الحسنى للذات العلية**» ما يلي:

اسم الرسالة	الرقم التسلسلي
نظرة إجمالية في الآيات الواردة في اسم الله «**الوكيل**» سبحانه وتعالى	(1)
اسم الله «**الوكيل**» سبحانه وتعالى	(1)
معنى اسمي الله تعالى «**الوَلِيّ**» و«**المَوْلَى**»	(2)
نظرة إجمالية في الآيات الواردة في اسمي الله تعالى «**الوَلِيّ**» و«**المَوْلَى**»	(3)
اسم الله «**القوي**» سبحانه وتعالى	(4)
اسم الله «**القدوس**» سبحانه وتعالى	(5)
اسم الله تعالى «**الودود**» - الطبعة الأولى والثانية	(6)
«**الشاكر**» و«**الشكور**» سبحانه وتعالى	(7)
اسم الله «**الرفيق**» سبحانه وتعالى	(8)
«**المَلِك**» و«**المالِك**» و«**المَلِيك**» جل وعلا	(9)
اسم الله «**اللطيف**» سبحانه وتعالى	(10)
اسم الله «**السلام**» سبحانه وتعالى	(11)